فؤاد زكريا

الوهم والحقيقة ... أيهما نختار ؟

obeikandl.com

هذه دراسة تسعى، مخلصةً، لتجاوز كونها مجرد قراءة واعية لنص ثقافي راق من أحد كتب الأستاذ الدكتور فؤاد زكريا، وتقارب تخوم أفكاره، فترصد – ربما – معالم الخطاب الديني لديه.

obeikandl.com

الكتاب الذي نكتب عنه «الوهم والحقيقة في الحركة الإسلامية المعاصرة» للمفكر الكبير الأستاذ الدكتور فؤاد زكريا. نشرة دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع. يقع في ١٨١ صفحة من القطع الصغير. ويشتمل على مقدمة ومجموعة من الدراسات التي تصب كلها، أو أغلبها، في مجرى طرح جديد لبعض الأفكار المعاصرة، ومعالجة تلك الأفكار من خلال منظور تنويري يعتمد – في المقام الأول – على رؤية اجتماعية حضارية للإسلام.

والكتاب – بهذا، ورغم صغر حجمه – يعد كبير القيمة ؛ فالقارىء المدقق سينتهي إلى أنه، الكتاب، يعد إضافة حقيقية إلى الإنتاج الثقافي للدكتور فؤاد زكريا. لكن الجديد أن هذه الإضافة تعالج مشكلات ومسائل وقضايا قلّ أن يخوض فيها رجال الفكر، وهم إنْ خاضوا فيها فلا تتم المعالجة بالصراحة والجرأة اللتين بهما عالج فؤاد زكريا قضاياه المطروحة على صفحات كتابه هذا، فبعض مفكرينا يربط بين البحث في هذه القضايا والباب الذي تأتي منه الريح !!! وهم يركنون إلى المثل الدارج المتصل بهذا الباب وتلك الريح.

والكتاب يضمّ – كما ذكرنا – مقدمةً ودراسات ... آثر الدكتور فؤاد زكريا أن يجعلها عناوين رئيسة تندرج تحتها عناوين أخرى.

والمقدمة لها أهميتها الجادة ؛ فهي تعد بدايةً لفهم المدخل / المنهج الذي سيعالج من خلاله فؤاد زكريا قضاياه عبر صفحات كتابه هذا، ففيها، المقدمة، يبين فؤاد زكريا خطورة الأحكام المسبقة والتعميمات وادعاء امتلاك الحقيقة المطلقة واليقين من البداية وقبل البحث والدرس والتقصّي، ثم ... عدم

الاعتبار بتجارب الآخرين أممًا أو أفرادًا، من حيث إن من لا يعتبر بتجارب الآخرين محكوم عليه بتكرارها في حين يكون الزمن قد تجاوزها وتخطاها ووضعها في ذمة التاريخ. ولعل هذا أن يكون داخلًا ضمن الحسم الفكري القطعي واليقين الذهني، وما ينطوي عليه هذا كله من أخطاء نفي الآخر وتضخيم الذات، ما يعيق الرؤية ويشوش التفكير، فيصعب، أو يستحيل، اتخاذ الموقف المناسب في الوقت المناسب !!!.

والمقدمة تحاول أن تضع حدًا فارقًا بين المأمول والممكن، بين الدين والفكر الديني، مخافة أن يُتخذ الدين بشكل انتقائي نفعي عبر توظيف نصوصه، أو بعض نصوصه، لغير ما أُنزلت له، ما يفسد الدنيا والآخرة معًا ؛ فمن الثورة الإيرانية على الشاه وحكمه المتسلط عبر آليات القمع المتمثلة، على الأقل، في السافاك ورجاله، إلى انقلاب النميري على بداياته ورفعه شعارات مشتهاة لدى جمهور عريض من شعبه الطيب، ليس من أجل العمل الصالح بقدر ما هي لصرف الناس عن التفكير في مشاكلهم الحياتية الطاحنة لهم، والتي تكاد أن تفسد عليهم حياتهم، إنْ لم تكن قد أفسدتها بالفعل: فإيران الثورة لم تتردد، ولم تخجل، من إعدام كل من يخالف «فكر» الفقيه / المرجع / الحوذة. والنميري لم يتردد، ولم يخجل، وهو يقْبل هجرة يهود الفلاشا عبر أراضيه إلى إسرائيل، بينما شعبه يعاني المجاعة وأحكام الإعدام والاستنزاف الدائم المتبجح لثروات البلاد.

وكذلك فالمقدمة تشير إلى أن هناك إساءة للفهم الصحيح للدين، من حيث إن أهم ما يتصدر تعاليم الإسلام العدل والمساواة والحرية. كما تشير المقدمة إلى

تفرقة ضرورية بين الشريعة وأخطاء المنتسبين إليها ؛ فمن المؤكد أن أية تجربة لتطبيق الشريعة الإسلامية يمكن أن تنحرف عن جوهر هذه الشريعة، بحيث لا يصح تحميل الشريعة أوزار التطبيق الباطل ... فهذه حقيقة يجب أن تكون كالمسلّمات.

إن فؤاد زكريا – في مقدمته تلك – يلح على ضرورة الوعي بالتاريخ، بحيث يكون هذا الوعي مؤثرًا عند الكلام عن الشريعة ذاتها ؛ بمعنى عدم الاكتفاء برسم صورة المجتمع المسلم بحسب ما نصت عليه النصوص المقدسة فقط، فلا يكفي – مثلًا – عند الكلام عن موقف الإسلام من العدالة الاجتماعية ذكر ما ورد في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة متعلقًا بهذا الموضوع للقول بأن الإسلام يدعو إلى العدالة الاجتماعية، فجعلُ النص، وحده، أساسًا للحكم على موقف «بشري» معين يدّعي أنه «موقف الإسلام» خالطًا، عن عمد قاصد، بين الموضوع والذات، ينطوي على خطأ منهجي كبير، لأن الناظر في التاريخ الإسلامي يلمح، بلا مشقة، أزمنة طويلة لم تنعدم فيها النصوص المقدسة الدالة والداعية إلى العدل والمساواة والحرية، ومع ذلك، ورغمه، كان هناك حكام حكموا حكمًا مطلقًا فتلاعبوا بمقدرات الأمة وصادروا الحريات وعبثوا بالأرواح[1].

(١) انظر مثالًا لا حصرًا: شمس الدين الذهبي: ميزان الاعتدال في نقد الرجال. مطبعة السعادة. مصر ١٣٢٥هـ ج ١ ص ٢٠٧، ج ٢ ص ١٨٣، ابن سعد: الطبقات الكبرى. دار صادر. بيروت. ج ٤ ص ١٨٤، ابن الأثير: الكامل في التاريخ. تحقيق. أبو الفداء عبد الله القاضي. دار الكتب العلمية. بيروت ١٤١٥هـ ط ٢ ج ٣ ص ٤٥٦، د. علي سامي النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام. دار المعارف. مصر ١٩٨١م ط ٨ ج ١ ص ٣٢٣، ٣٢٤، جمال الدين القاسمي: تاريخ الجهمية والمعتزلة. مصر ١٣٣١هـ ص ٣٠٦: ٤٧٠، زهدي جار الله: المعتزلة. مطبعة مصر. القاهرة ١٩٤٧م ص ١٩٠ وما بعدها.

والمقدمة تضع تمهيدًا – في عجالة – لمناقشة صحة أو خطأ الاستدلال بكثرة عدد المشايعين أو كثرة الأشياع والأتباع على صحة هذا الاتجاه أو ذاك[٢]، فمن غير المؤكد القول بأن الكثرة تعد دليلًا على الصحة، فاتساع القاعدة الجماهيرية التي تنادي بمبدأ معين لا يمكن أن يكون مقياسًا لنجاح هذا المبدأ، من حيث إن الضمان، والحال هكذا، هو الوعي في أعلى درجاته، لأن نقص الوعي، ولا نقول انعدامه، يؤدي إلى التفاف الكثرة حول أمر قد لا تكون له قيمة، فكأننا، بذلك، نستدل بكثرة الأتباع على قلة الوعي لدى جمهور عريض من الناس.

والمقدمة، وهي تحاور الاتجاهات الإسلامية المعاصرة، تريد أن تجعل الجهد المبذول يتوجه نحو العمل والتأثير من خلاله، لا الكلام الإنشائي المطاط / الزئبقي / الرجراج الذي لا يسمن ولا يغني من جوع، فلا ينبغي أن تكون من الأولويات المهمة العودة بالتشريعات إلى عهود سابقة، بل يجب أن تكون الأولويات هي بذل الجهد العلمي والفقهي والمعرفي والثقافي لإزالة ما علق

(١) من وقعة صفين، فإن الإمام عليًا، كرم الله وجهه، قد ضرب لنا مثلًا نعلم من خلاله عدم ضرورة وجود الحق مع الكثرة، إذ الحق لا يُعرف بكثرة الأتباع، والباطل لا يُعرف بقلتهم ... فيقول لما سأله الحارث بن حوّط مستنكرًا كون أهل الشام على باطل مع كثرتهم، وأهل العراق على حق مع قلتهم: يا جار، إنه لملبوس عليك. الحق لا يُعرف بالرجال، وإنما الرجال يُعرفون بالحق. اعرف الحق تعرف أهله، واعرف الباطل تعرف أهله، قلّوا أم كثروا. انظر: الجاحظ: البيان والتبيين. تحقيق. المحامي فوزي عطوي. دار صعب. بيروت ١٩٦٨م ط ١ ج ١ ص ٤٩١

بهذه التشريعات من شوائب واستثناءات أصبحت، بمرور الوقت، هي القاعدة.

obeikandl.com

البترو / إسلام

وهذا هو أول عنوان لأول دراسة يطالعه القارئ لهذا الكتاب المهم، وفيها، الدراسة، يشدد فؤاد زكريا على قضية «من يخدم من !!!» بمعنى: هل يخدم الناس الدين، أم هل يتم توظيف الدين من أجل الإبقاء على وضع هنا أو هناك ؟ صالحًا كان أم غير صالح !!!.

إن الدراسة ترصد كون الأرض التي بدأ منها الإسلام، أرض الجزيرة العربية، كانت على درجة لا تحسد عليها من الفقر والجدب، وكانت صعوبة الحصول على المأكل والمشرب والمرعى والملجأ واقعًا ملموسًا في هذه البيئة، وتستدل الدراسة على ذلك بقول إبراهيم عليه السلام «ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم»[١]، ثم من شعيرة الحج تريد الدراسة أن تقيم دليلًا معاشًا وممارسة مقامة على البعد الاقتصادي في حياة المسلمين الأوائل، تلك الحياة المسغبة الشاقة، إلى جانب البعد التعبدي لهذه الشعيرة، وهي الخامسة من فرائض أقيم عليها الإسلام[٢].

---

(١) سورة إبراهيم: آية رقم ٣٧

(٢) في الحديث الشريف أن الرسول، صلى الله عليه وسلم، قال: بُني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وإيقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلًا. انظر: ابن حجر: فتح الباري شرح صحيح البخاري. المطبعة الأميرية. القاهرة ١٣٠١هـ. مج ١ ص ٤٢

والدراسة، لما أن تناولت البيئة الإسلامية في الماضي ثم في الحاضر، وجدت أن «مصادفة» طيبة أوجدت أنهارًا من ذهب أسود تتدفق من باطن هذه الأرض التي هي مهد الدين الذي أشار، أول ما أشار، إلى أنه من نعم الله تعالى أنه «أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف»[١]، وبالتالي كان هناك، بحسب هذه المعادلة ذات الطرفين، طريقان:

إما أن يتم تسخير هذه الثروة الهائلة فوق التصور لخدمة الدين الذي تشرفت به هذه الأرض صاحبة تلك الثروة.

وإما أن يسخّر الإسلام لخدمة هذه الثروة !!!. وتنعي الدراسة أن الطريق الثاني هو المرئي والمعاش بيننا.

ويفضّل فؤاد زكريا إطلاق مصطلح البترو / إسلام على هذا الطريق مبينًا أن المقصود من هذا الطريق هو حماية نوع من العلاقات الاجتماعية القائمة في تلك المجتمعات التي تمتلك النصيب الأكبر من تلك الثروة[٢].

كما تنعي الدراسة توظيف هذه الثروة في البلدان التي وجدت فيها لا من أجل قيمة حقيقية تفارق بها هذه الأمة مكانها بين الأمم المتخلفة لتكون بين الأمم المتقدمة، بل من أجل ترسيخ ثقافة الأخذ بالظاهر

(١) سورة قريش: آية رقم ٤، وانظر دراستنا حول هذه السورة الكريمة وعلاقتها بالمجتمع المسلم على صعد الأمن والاجتماع والاقتصاد «سورة قريش: فلسفة الحدود وإشكالية الأمن في المجتمع المسلم» مجلة كلية الآداب. جامعة المنيا. عدد أكتوبر ١٩٩٩م

(٢) د. فؤاد زكريا: الوهم والحقيقة في الحركة الإسلامية المعاصرة. دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع. ص ٢٣

والمظاهر والدوران في المماحكات اللفظية، ما يعني وجود حد قاتم بين الدين والسلوك الممارس في حياة الناس(١)، فهذا النوع من التدين الذي انتشر سريعًا بين الناس هو «إسلام الحجاب واللحى والجلباب القصير وتوقف العمل في مواعيد الصلاة وتحريم قيادة المرأة للسيارات. في هذا النوع من الإسلام ينصب الكفاح على منع الاختلاط بين الرجل والمرأة، وتلعب التحريمات والمخاوف الجنسية دورًا يتجاوز أهميتها في الحياة بكثير، ويصبح أداء الشعائر غاية في ذاته، بغض النظر عن المضمون السلوكي والأخلاقي والاجتماعي الكامن من ورائه»(٢).

وتجعل الدراسة للثروة البترولية طرفين: منتج ومستهلك(٣) لتخلص إلى أن ظهور نوع معين من التدين السلبي المنفصل عن الواقع والمغرق في الماضي، باعتباره منفذًا ومنقذًا، هو محط رضا وقناعة طرفي الثروة: البلد المنتج والآخر المستهلك «فالدول التي ينتج البترول في

(١) ... بيّنا أنه «ملاحَظ في حياة المسلم، المعاصر تحديدًا، لا مبالاة ... وربما احتقار لما يعرف اجتماعيًا ب «الواجبات العامة» فأنت – مثلًا – قد ترى مسلمًا يواظب على صلاته في مسجد الحي، أما نظافة ما حول المسجد، أما نظافة الحي نفسه فأمر لم يرد له على بال، لأنه – المصلّي – فرّق بين ما هو إلهي وما هو اجتماعي، ناسيًا، أو متناسيًا، أن الإلهي لم ينزل إلا لتنظيم ما هو اجتماعي».

(٢) د. فؤاد زكريا: الوهم والحقيقة. ص ٢٤

(٣) يتحفظ فؤاد زكريا على تعريف دول البترول بأنها منتجة له، لأن «معظم هذه الدول في العالم الإسلامي لا تنتج شيئًا، بل يُنتج لها البترول، لذلك كان التعبير الأدق هو دول يُنتج البترول في أراضيها». انظر: فؤاد زكريا: الوهم والحقيقة. ص ٢٤ ولعل هذا أن يدل على دقة فؤاد زكريا وحدّةِ منطقه ورغبته عن الكلام الفضفاض غير المطابق لما صدقات الواقع !!!.

أراضيها تسود الكثير منها أنظمة في الحكم يفيدها إلى أقصى حد أن يختزل الإسلام إلى هذه الشكليات حتى تغيب عن أذهان الناس مشكلات الفقر وسوء توزيع الثروة والنمط الاستهلاكي للاقتصاد وتبديد الفرصة الأخيرة للنهوض الشامل في المجتمعات البترولية»[١]. والدول التي تستهلك لا تريد شيئًا أكثر من ضمان استمرار تدفق البترول إلى مصانعها وأيدي عمالها، ففي هذا ضمان لاستمرار الدورة الاقتصادية فالتفوق بمفهومه الواسع، وهذا الضمان يكون موثوقًا به حين «تكون عقول الناس مغيبة في الشكليات وغارقة في نصوص فقهاء العصور الغابرة وشراحها ومفسريها. فهل يحلم الغرب، ومعه إسرائيل، بوضع أفضل من ذلك الذي يؤكد فيه واحدٌ من أهم الأعضاء في أكثر الجماعات الإسلامية فاعلية ونشاطًا أن مشكلة القدس والصراع ضد إسرائيل مؤجلان إلى حين قيام الدولة الإسلامية»[٢].

وإذا كانت هذه الرؤية ممعنةً في جلد الذات، فإنها، الدراسة، تفتح بابًا للأمل يتمثل في صيغة معرفية / إسلامية توظف هذه النعمة التي وهبها الله تعالى لأرض الإسلام من أجل تحقيق المباديء التي تعد أهم ما في العقيدة الإسلامية: العدالة والمساواة والحرية، فذلك – حال تم – ستكون فيه المحافظة على نقاء العقيدة وإحداث تحول حاسم نحو الأفضل في حياة المنتسبين لهذا الدين العظيم.

---

(١) د. فؤاد زكريا: الوهم والحقيقة. ص ٢٤

(٢) د. فؤاد زكريا: المرجع السابق. ص ٢٥

العالم المعاصر عند الشيخ شعراوي

تحت هذا العنوان نقرأ، وفي السطر الأول، عبارة لا تصدر إلا عن فؤاد زكريا بجرأته فيما يراه حقًا لا يجب السكوت عنه، فهو، فؤاد زكريا، يعترف أن هذه السطور سباحة ضد التيار !!! لكن أي تيار ؟ إنه «التيار الديني الذي أصبح منذ السبعينات يمتلك قوة هائلة على الساحة الشعبية وفي المجالس النيابية وفي الأوساط الثقافية، والذي أثبت حضوره حتى في عالم الاقتصاد والمال»[١].

وهذه الدراسة لا تعنى بهذا التيار ككل، بل بالجانب الفكري منه، ولا تُعنى بالجانب الفكري ككل، بل بأهم ممثليه وأكثرهم شعبية وانتشارًا: الشيخ محمد متولي الشعراوي !!! فيذكّرنا فؤاد زكريا بذلك الجدل الذي قد كان بين الشيخ الشعراوي من ناحية، وكل من الأديب يوسف إدريس والدكتور زكي نجيب محمود[٢] ... رحم الله الجميع.

ففؤاد زكريا يعلن أنه لا يحمل غير الود للشيخ الشعراوي، حيث يصفه بأنه «ذو شخصية جذابة، ويتمتع بحيوية هائلة تتمثل في تلك الحركة الدائبة التي تصاحب كلماته، وتزيد من قوة تأثيرها، والأهم من

---

(١) د. فؤاد زكريا: الوهم والحقيقة. ص ٢٧

(٢) كتب يوسف إدريس رده في جريدة الأهرام القاهرية تحت عنوان «حلمك يا شيخ ...»، وكتب زكي نجيب محمود رده في الجريدة ذاتها تحت عنوان «ويبقى الود ما بقي العتاب».

ذلك تبحره في علوم التفسير والحديث وغيرها من العلوم الفقهية، وذكاؤه الحاد وبديهته اللماحة»[١].

لكن فؤاد زكريا يأخذ على الشيخ وقوعه في أسر الانبهار بإعجاب الناس به، ومن ثم عدم الرضا بالاكتفاء بالكلام فيما درس وتعلم ومهر فيه، بل تتضخم لديه الرغبة في إبداء الرأي في كل شيء وأي شيء، حتى لو كان هذا الشيء يحتاج علومًا وعلماء قد يحارون فيه، وقد دفع هذا كله الشيخ إلى عدم الاكتفاء بما هو متخصص فيه ومتقن له: علوم التفسير والحديث واللغة، بل راح – عبر ما هو مقروء ومرئي ومسموع – يتكلم بلسان العالم الواثق في الفلك والأخلاق والسياسة والاقتصاد !!!.

ويمكن رصد نقد الكتاب لكلام الشيخ الشعراوي في ثلاث قضايا: أخلاقية وعلمية وسياسية.

وتكمن أهمية هذا النقد في أنه لا يتوجه إلى شخص الشيخ نفسه، ولا إلى قناعاته، بل إلى منهجه الفكري وآلية تنفيذ ذلك عبر «تغييب» وعي المستمع أو المشاهد أو القاريء، ما يجعل «صناعة» جيل من المستمعين والمشاهدين والقارئين الذين يأخذون الأمور على علاتها بدون أدنى درجة من إعمال العقل أمرًا غير مستغرب، بل متوقعًا، حيث المقدمات تؤدي إلى نتائجها ضرورة، خاصة وأن له – الشيخ الشعراوي– تأثيرًا غير محدود على آلاف من المشايعين والمريدين داخل مصر

(١) د. فؤاد زكريا: الوهم والحقيقة. ص ٢٩

وخارجها، وهنا يهتم فؤاد زكريا – أستاذ المنطق ومناهج البحث العلمي – ببيان الأخطاء المنهجية في تفكير الشيخ دفاعًا عن منهج عقلاني يؤمن به فؤاد زكريا، ويتغلغل في فكره حتى النخاع، ويريد له أن يشيع في حياتنا ويرسخ في عقول الناس، فتستقيم الأمور لما تستقيم العقول.

أما القضية الأخلاقية التي ينقدها فؤاد زكريا، فربطه، الشيخ، بين كون المرأة «مستورة» وبين صحة نسبة الأبناء إلى أبيهم !!! ؛ بمعنى أن المرأة المستورة هي – وحدها – التي تنجب لزوجها أبناء من صلبه، وللرجل، والحال هذه، أن يثق في صحة انتساب الأبناء إليه !!! وهنا، وبحسب مصطلح المسكوت عنه، اتهام ضمني أخلاقي للمرأة «غير المستورة»، حيث هناك شك في صحة نسبة الأبناء إلى أبيهم منها. والمغالطة هنا واضحة، سواء من حيث توظيف الحس الشعبي الواقف في صف «الاحتشام» و «الستر»، أو في النتائج «القاسية» التي تفضي إليها هذه المغالطات.

هنا يرصد فؤاد زكريا ما وراء هذا الطرح السطحي من نظرة أخلاقية إلى المرأة، حيث تقوم هذه النظرة على اعتبار أن المرأة شر وغواية، ولا وقاية من هذا الشر وهذه الغواية إلا بالحجب / المنع ... ولو قسرًا، حتى لا يقع المحظور ويأتي أبناء غير موثوق في صحة نسبهم إلى أبيهم !!!، ومن ثم يرى فؤاد زكريا أن لا مكان – بحسب هذا الطرح – للمرأة العاملة والمرأة العالمة التي ستكون – بحسب هذا الوسواس – مصدرَ جنس وغواية للرجل، لأن الغواية، وما إليها، لا يكون الستر، وحده، هو

المانع لها، بقدر ما تكون التربية والتعليم وعوامل أخرى اجتماعية واقتصادية ونفسية عناصر ضبط وتهذيب.

وكلام فؤاد زكريا لا يقف معارضًا للحجاب، كأحد علامات المرأة المسلمة، بل هو يقف ضد توظيف هذه العلامة بالإيجاب والسلب: فالحمد لصاحبتها والذم لغيرها، وهذا نوع من التفكير يؤدي إلى نتائج غير طيبة على كل الصعد: الأخلاقية والاجتماعية والنفسية.

وأما القضية العلمية التي ينقدها فؤاد زكريا، فهي تتعلق بأمرين لهما أهمية، أو يجب أن يكون الأمر كذلك، في عقلية المسلم:

الأول: علاقة النصوص المقدسة بالواقع الحياتي المعاش من ناحية، وبالنظريات العلمية من ناحية أخرى[1].

---

(١) في مسألة علاقة النص الديني المقدس – قرآنًا وسنةً – بالعلوم وتطبيقاتها: هل هي علاقة تحفيزية، أم علاقة تفسيرية. وجد قولان:

الأول. يراها علاقة تفسيرية ؛ بمعنى اشتمال النص الديني على التطورات التي شهدها – وسيشهدها – العلم.

والثاني. يراها علاقة تحفيزية ؛ بمعنى عدم إلحاق الثابت الصادق – النص الديني – بالمتغير احتمالي الصدق – العلم -. وعلى حين يعتمد أنصار القول الأول – في الغالب الأعم – على تفسيرات وتأويلات للنص، لا على النص نفسه، يعتمد أنصار القول الثاني على أن ربط الدين بالنظريات العلمية سيؤدي إلى أمرين: أن المسلم «سينتظر !!!» حتى تثبت نظرية ما، ثم يبحث في النص الديني عما يؤيدها، ولو تعسفًا. وأن صاحب هذه النظرية أو تلك، غالبًا ما يكون غير مسلم، وفي هذا إدانة للمسلم بمقتضيات النص نفسه ؛ إذ الإسلام يأمر أتباعه أن يكونوا الأقوى والأعلم. ومن ثم يرى هؤلاء أن «القرآن الكريم لم ينزل ليدلل على نظرية من =

الثاني: قيمة العقل ودوره باعتباره مناط التكليف في الإسلام[١].

ففي الأمر الأول، ينتهي فؤاد زكريا إلى أنه يأخذ على الشعراوي ابتعاده كثيرًا عن الفهم العلمي الحديث والمعاصر فيما يعرضه من كلام عن العلوم الفلكية، وإصراره على اللجوء إلى علوم ومعارف العصور الوسطي، وهي علوم ومعارف صارت في ذمة التاريخ، وأصبحت في متاحفه آثارًا للمشاهدة والاعتراف بوجود «حراك» عقلي، لكنها لا تخدم الحاضر، ومن ثم المستقبل، لأن التقدم العلمي قد تجاوزها ... إذ التجاوز سمة من سمات العلم.

وفي الأمر الثاني، فإن مأخذ فؤاد زكريا يعد ركيزة أساس نحو تأسيس مفاهيم جديدة جدة كاملة في بناء عقل الأمة، وقد طال نومها ؛

= نظريات الهندسة مثلًا، ولا ليقرر قانونًا من قوانينها، وكذلك علم الهندسة، لم يوضع ليخدم القرآن ويؤيد آياته ويبين أسراره، وهكذا القول في سائر العلوم الكونية والصنائع العالمية، وإن كان القرآن قد دعا المسلمين إلى تعلمها وحذقها والتمهر فيها، خصوصًا عند الحاجة إليها «انظر: محمد عبد الرازق الزرقاني: مناهل العرفان في علوم القرآن. مطبعة الحلبي. القاهرة. ح ١ ص ١٧، وقد سبق محمد عبده هذا الموقف بموقف فارق في فكره التجديدي ؛ أنه لا يربط بين الدين والعلم، أو بالأدق «النظريات العلمية»، فيضع البداية الصحيحة ليفهم المسلم القرآن الذي لا يجوز الخلط بينه وبين المنجزات العلمية، واعتساف القول بأن ما اكتشف، ويكتشف، قد ورد في القرآن ... ؛ فالقرآن يذكر إجمالًا من آثار الله في الأكوان تحريكًا للعبرة وتذكيرًا بالنعمة وحفزًا للفكرة، لا تقريرًا لقواعد الطبيعة ولا إلزامًا باعتقاد خاص في الخليقة.

(١) عن قيمة العقل في الإسلام كتب عباس محمود العقاد كتابه «التفكير فريضة إسلامية» وكتب آخر يقول: ما قولك في دين يقول أئمته بترجيح دليل العقل على ظاهر الشرع عند التعارض»؟ انظر: محمد كرد علي: الإسلام والحضارة العربية. دار الكتب ١٩٣٤م ج ٢ ص ٤٠

فلا يجب التقليل من قيمة العقل وقدرته، فالعقل نعمة من الله تعالى[١]، والتقليل من قيمة هذه النعمة غير مطلوب، بل غير مقبول، خاصة وأن كلام الشيخ عن العقل وإنجازاته، ثم التهوين من ذلك كله ... بل والسخرية منه أحيانًا[٢]، يعد خطرًا كبيرًا، لأنه، الشيخ، يخاطب جموعًا لديها قبول «عاطفي» وهي، الجموع، تمثل، وبأسف شديد، قسمًا كبيرًا مما يسمى العالم الثالث، وهذه تسمية، برأينا، مهذبة للدول المتخلفة !!!.

وقد كان أولى بالشيخ، يرى فؤاد زكريا، حث مستمعيه على بذل المجهود من أجل اللحاق بركب العلم والتكنولوجيا، فبهذا وحده يمكننا الكشف عن ثروات بديلة للبترول، وهو طاقة نافدة، والبحث عن وسائل علمية تحقق للأمة الاعتماد – بعد الله تعالى – على ذاتها لتحقق الاكتفاء الذاتي في كل ما يمس وجودها، فلا تكون، من ثم، في حاجة إلى عون غيرها، ولا يكون قرارها، من ثم، رهين إرادة غيرها.

---

(١) فهمَ القدماءُ دورَ العقل وقدروه ... فقالوا في ذلك: لولا أن الله تعالى أراد تشريف العالم بتربيته وتسويد العقل ورفع قدره، وأن يجعله حكيمًا وبالعواقب عليمًا، لما سخّر له كل شيء ولم يسخره لشيء، ولما طبعه الطبع الذي يجيء منه أريب حكيم وعالم حليم. انظر: الجاحظ: رسائل الجاحظ. تحقيق. عبد السلام هارون. مكتبة الخانجي. القاهرة ١٩٦٤م ص ١٢٥ . وكلمة «تسويد» الصواب أن تكتب «تسييد».

(٢) يرى الشيخ أن علوم الفضاء وتكنولوجيا الأقمار الصناعية كلها لا تساوي شيئًا، وأن الإنسان الذي اخترع «ورقة الكلينكس» أو عود الكبريت قد أفاد البشرية بأكثر مما أفادها ذلك الذي اخترع صاروخًا يصل إلى القمر !!! انظر: فؤاد زكريا: الوهم والحقيقة. ص ٣١ ونسي فضيلة الشيخ أن الأقمار الصناعية هي التي مكّنت الآلاف من مشاهدة أحاديثه في غير بلد، وكذلك فإن «شؤون الكرة الأرضية» خاصةَ العسكرية، أصبحت تدار من الفضاء الخارجي.

وأما القضية السياسية، ففيها جانب يدعو إلى المعرفة، قبل التعليم، وفيها دعوة صريحة إلى عدم توظيف الدين بطريقة انتقائية نفعية[١] ؛ فبعنوان «الإسلام يتحدى الشيوعية والرأسمالية» تمت إقامة علاقة تشابه وتماثل بين كل من الفرس والشيوعية من ناحية، وبين كل من الروم والغرب من ناحية ثانية، ثم، بحسب منهج الاسترداد، يعْلمنا العنوان أن الفرس حاربت الروم وانتصرت الأخيرة ففرح المؤمنون، وهم المسلمون الأوائل، بذلك النصر رغم أن الروم ليسوا مؤمنين، لكن العنوان ينفذ إلى المشاعر الدينية فيضغط على عصب العاطفة، فالروم – وإن كانوا كفارًا – أهل كتاب، بينما الفرس كفار وليسوا أهل كتاب، وهنا يربط الشيخ في تفسيره «السياسي» وبطريقة آمرة أكثر منها موحية بين الغرب والروم، وبين الفرس والاتحاد السوفيتي السابق، فتتوالى، في ذهن المتابع المغيب أصلًا بالانبهار والكسل العقلي والرغبة في إلقاء تبعة الفهم والتفكير على الغير، تداعيات سياسية مستترة باسم الدين ؛ فعلى المسلمين أن يفرحوا بانتصار الغرب على الاتحاد السوفيتي !!!.

(١) في تاريخنا نماذج لهذا التوظيف: فقديمًا رفع معاوية المصاحف مناديًا أن لا حكم إلا لله. وهذه الواقعة قال فيها علي، كرم الله وجهه،: إنهم ما رفعوها إلا خديعةً ودهنًا. انظر: الطبري: تاريخ الطبري. تحقيق. محمد أبوالفضل إبراهيم. دار المعارف. مصر ١٩٧٩م ط ٤ ج ٥ ص ٤٨ وما بعدها، طبعة بيروت. دار العلم للملايين ١٤٠٧هـ ط ١ ج ٣ ص ١٠١ : ١١٠. وفي الأمس القريب دخل أحد الأحزاب المجال السياسي واختار النخلة رمزًا انتخابيًا لمرشحيه، وليدغدغ المشاعر كتب تحت هذا الرمز «وهزي إليك بجذع النخلة» !!!.

وخطورة هذا الكلام / الإسقاط أنه إعلام أكثر منه كلام أمام حشد، بل حشود، من الشباب المتعطش للمعرفة بوجه عام، والسياسية منها بوجه خاص، فتصبح لديه قناعات فكرية ... تتحول – بعد – إلى سلوك عملي تمثل في شبابنا الطيب وهو يغادر إلى أفغانستان لمحاربة «الكفار»، وعاد هذا الشباب ففعل ما فعل، وكلنا يعلم ما فعل ضارًا بنفسه وبوطنه وقضاياه.

إن فؤاد زكريا يرفض هذه الدعوى جملة وتفصيلًا، موضحًا أن «الاستعمار، الذي اكتوت منه بلادُنا زمنًا طويلًا، جاء من الغرب، وأن إسرائيل ما كانت لتقوم لها قائمة، وما كانت لتتمكن من الصمود طوال ثلث القرن الأخير، ومن حشد القوة التي تفوق قوة الدول العربية مجتمعةً، لولا المساندة المباشرة من الغرب وخاصة أمريكا[1]" وأن المعسكر الاشتراكي[2]، بعد أن ارتكب خطأ الاعتراف بإسرائيل في أول عهدها، حيث لم تكن قد اتضحت بعد معالم الدولة الجديدة من حيث هي قاعدة للنفوذ الاستعماري الجديد تنفذ من خلالها أمريكا جميع مخططاتها في منطقة

(١) انظر في ذلك: محمد حسنين هيكل: أكتوبر ٧٣ السلاح والسياسة. مركز الأهرام للترجمة والنشر. مصر ١٩٩٣م ط ١ ص ٣٩٥ وما بعدها، أنور السادات: البحث عن الذات. المكتب المصري الحديث. القاهرة ١٩٨٧م ط ١ ص ٣١٨ وما بعدها، وأيضًا ما كتبه، في مذكراتهم، كل من: هنري كيسنجر، الفريق أول محمد فوزي، والفريق سعد الدين الشاذلي، والفريق أول محمد عبد الغني الجمسي وغيرهم.

(٢) بدأ في الانهيار عام ١٩٩٨م ولم يستمر الأمر طويلًا حتى يعلن «جورباتشوف» و«شيفرنادزة» تفكيك الاتحاد السوفيتي فالمعسكر الاشتراكي برمته.

الشرق الأوسط، قد عاد وكفر عن هذا الخطأ على شكل مساندة معنوية ومادية للعالم العربي ضد أعدائه، وهذا المعسكر لا يفعل ذلك، بالطبع، حبًا في سواد عيون العرب، وإنما المسألة ببساطة هي أن مصلحته إضعاف النفوذ الغربي الرأسمالي في أي مكان بالعالم، وخاصة في المناطق القريبة منه، وفي هذه المسألة تتفق مصالحنا الحقيقية مع مصالح هذا المعسكر، على الرغم من الاختلاف العقائدي الأساسي بيننا وبينه»[1].

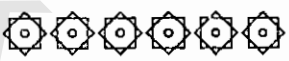

(١) د. فؤاد زكريا: الوهم والحقيقة. ص ٣٧

obeikandl.com

مستقبل الأصولية الإسلامية

يأخذ هذا العنوان من الكتاب، وبشدة، على نفر من مثقفينا رفع لافتة «الحقيقة الواحدة» ؛ بمعنى أن الكل – ما عداه – على خطأ، وهذا، برأينا، يعد نوعًا من «الحول الثقافي» الذي يبخس تجارب الآخرين حقها، لأن الثقافة، في مفهومها الشفاف، تملي على صاحبها أن يقبل التعدد، بل والتغير، فلا يسعى لمحو كل ما عداه أفرادًا وأفكارًا، وتدعوه أن يرى في ثقافة الآخرين المغايرة، وربما المخالفة، وجهة نظر إنْ لم تُتبع، فهي، على الأقل، تُحترم، وأن يرى في هذه الثقافة المغايرة خطوة في الاتجاه / التوجه الصحيح، لأن الحقيقة لم يصبها، ككل، أحد بعينه، ولم يخطئها، ككل، أحد بعينه.

وهذا العنوان تحته سجال قيم، لأن أحد طرفيه أستاذ له كتابات لا يستطيع المتابع للساحة الثقافية تجاهلها، وهو الأستاذ الدكتور حسن حنفي[1].

---

(١) سيادته أستاذ الفلسفة غير المتفرغ بكلية الآداب. جامعة القاهرة، لا يسع المثقف تجاوز كتاباته اتفق معه أو اختلف. ونشير إلى أن نقد فؤاد زكريا لكتابات حسن حنفي ليس موجهًا لشخصه، بل لأفكاره ومبادئه المعلنة في دراسته تلك، وقد نشرتها جريدة الوطن الكويتية العام ١٩٨٢م. وفؤاد زكريا نفسه يعترف بأن نقده سيكون قاسيًا وشديدًا، وقد برر ذلك بأمرين: أحدهما «يتعلق بالموضوع نفسه، وهو الكم الهائل من التناقضات والتحليلات الخاطئة». والآخر «يتعلق بالمبدأ العام، وهو أن التوجيه السيىء في الأمور التي تمس مستقبل أجيال بأسرها، لا يحتمل تخفيف اللهجة أو المداراة». انظر: د. فؤاد زكريا: الوهم والحقيقة. ص٥٠، ٥١

من هذه المآخذ أن الدكتور حسن حنفي ينتقد مخالفيه – يساريين كانوا أم علمانيين أم ليبراليين – دون أن يدعم نقده بأدلة عقلية منطقية ... وهذا، برأي فؤاد زكريا، مأخذ ليس هينًا، لأنه موجّه إلى أستاذ متخصص في الدراسات الفلسفية.

يدافع حسن حنفي عن ظاهرة «الأصولية الإسلامية» لا عبر الاحتفاظ بتجارب الشعب السابقة والاستفادة منها لمزيد من صقل الوعي الشعبي، بل عبر هدم كل التجارب الشعبية السابقة، فكأننا، بذلك، أمام منهج يعتمد الإقصاء / الإبعاد بدلًا من اعتماد التكامل / التواصل آليةً لخطاب ثقافي / وطني على درجة عالية من الوعي السياسي / الاجتماعي.

إن فؤاد زكريا – بحسّه الناقد – يلمح أن خطورة الكتابة في هذا الأمر بهذه الطريقة، تكمن في أنها، الكتابة، تضغط، عبر عصب العاطفة بوجه عام، والدينية بوجه خاص، لتفرز رأيًا يرى أن كل البدائل السياسية والاجتماعية في عالمنا العربي / الإسلامي قد فشلت، ولم يبق إلا الحل على الطريقة التي تتغياها الجماعات المتطرفة المسلحة طريقًا للخلاص.

ومما استوجب نقد فؤاد زكريا لحسن حنفي، حين تكلم الأخير عن دور الفقهاء في تشكيل عقل ووجدان شباب هذه الجماعات الإسلامية المعاصرة، صعوبة الوقوف على موقف محدد وواضح للدكتور حسن

حنفي من الفقهاء، أو حتى في بيان صحيح للأثر المزعوم الذي تركوه في الجماعات الإسلامية المعاصرة. ويوضح فؤاد زكريا – عبر نص للدكتور حسن حنفي – كيف يتعاطف سيادته مع نصوصهم، وكيف يقدّر أصالة الفقهاء الأقدمين، ما يعطي زخمًا من التبريرات لارتباط هذه الجماعات بتراث هؤلاء. وإن كان هذا حق الدكتور حسن حنفي الذي يجب الإقرار له به، فإن المرء لا بد أن «يعترض بشدة على ما تعبر عنه هذه النصوص من تناقضات، ومن اتجاهات شديدة الرجعية»[١].

فمن هذه التناقضات وصف الفقهاء بأنهم أهل نقل لا أهل عقل، وأنهم المحافظون الأشداء على النص ضد التأويل[٢].

ثم القول بأن هؤلاء الفقهاء قد قدموا، وما زالوا يقدمون، إجابات إسلامية لقضايا العصر !!! . هذا استوجب نقد فؤاد زكريا، لأن «من يتمسك بحرفية النص الخام، ويرفض العقل متمسكًا بالنقل، لن يكون قادرًا على قبول أي تحد عصري، ولا راغبًا في ذلك، لأن مواجهة هذا التحدي تفترض وجود تأويل وتحديث للنص، وهو ما يرفضونه أصلًا حسب تعبير الكاتب»[٣].

---

(١) د. فؤاد زكريا: الوهم والحقيقة. ص ٥٢

(٢) لنا أكثر من دراسة عن التأويل، سواء من ناحية المفاهيم، أم من ناحية الموقف منه، أم من ناحية وظائفه الفكرية والعقدية. انظر لنا، وفي مواضع مختلفة: أبو رشيد النيسابوري وآراؤه الكلامية والفلسفية، الإلهيات عند ناصر الدين البيضاوي، الإمام ناصر الدين البيضاوي ومنهجه في التفسير، القرآن والنبوة عند القاضي عبد الجبار.

(٣) د. فؤاد زكريا: الوهم والحقيقة. ص ٥٢

ثم هناك مصطلح «الأصالة الإسلامية» الذي يلتبس معناه على كثير من القراء، إذ يتم الربط بينه وبين الامتناع عن التأويل، فيصبح فهم النص الخام عبر تأويله وتوظيفه حياتيًا ومعاشيًا بدعةً[1]، وهذا يجعل من يستخدم عقله ويقوم بالفهم عبر التأويل متهمًا، ويجعل من يحجم عن ذلك ويكتفي بمجرد «الحفظ» و«التسميع» حارسًا للعقيدة.

إن فؤاد زكريا يبدي دهشة العالم الناقد حيال كل هذه المواقف، حيث إن استخدام الدكتور حسن حنفي «تعبيرات مثل حراس العقيدة

---

(١) لعل العقل العربي أن يكون ذا حساسية مفرطة إزاء التأويل حين يربطه البعض – متعمدًا – بالبدعة، وبالتالي يدخل به ضمن نطاق التحريم المطلق. وفي ذلك قالوا: إن ما ابتدع ضلالة. انظر: حافظ بن أحمد حكمي: معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول. تحقيق. عمر بن محمود أبو عمر. دار ابن القيم. الدمام ١٩٩٠م ط ١ ج ٣ ص ١٢٢٠، وقالوا: الحمد لله الذي لم يجعلنا ممن ابتدع. انظر: أحمد بن حنبل: الرد على الزنادقة والجهمية. تحقيق. محمد حسن راشد. المطبعة السلفية. القاهرة ١٣٩٣هـ ص ٣٤، وقالوا: من لم يتّبع ابتدع. انظر: هبة الله بن الحسن اللالكائي: شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة من الكتاب والسنة والإجماع. تحقيق د . أحمد سعد حمدان. دار طيبة. الرياض ١٤٠٢هـ ج ٣ ص ٥٠٩، وقالوا: البدعة هي الحدث في الدين بعد الإكمال. انظر: الرازي: مختار الصحاح. ج ١ ص ١٨، وبلغ الأمر درجةً أنْ تم تأليف كتاب بأكمله تحت عنوان «ذم التأويل»!!! انظر: عبد الله بن قدامة المقدسي: ذم التأويل. تحقيق. بدر بن عبد الله البدر. الدار السلفية. الكويت ١٤٠٦هـ، وانظر في قيمة التأويل – بحسب شروطه وضوابطه – كتابنا: الإمام ناصر الدين البيضاوي ومنهجه في التفسير. دار الهداية للطباعة والنشر والتوزيع. القاهرة ١٩٩٦ ط ١ ص ٢٨، ١٥٥: ١٦٤، وإعمالًا لمفهوم التأويل والفهم للمقاصد العامة للشريعة وعلاقة ذلك كله بمصالح العباد والبلاد. انظر: د. عبد المنعم النمر: الاجتهاد. دار الشروق. القاهرة. ص ٩٣ وما بعدها.

والحفاظ على الأصالة الإسلامية والدفاع عن العقيدة ضد البدع ... لن يفهم منه القارىء إلا أن الكاتب يؤيد هذه المواقف من كل قلبه»[١].

ثم يعلق فؤاد زكريا على ذلك بقوله «لست أدري كيف تمر تعبيرات مثل «أهل نقل لا أهل عقل» و «يحافظون على النص ضد تعقيله وتحديثه» دون أن يعلق عليها حسن حنفي، وهو يعلم أن شبابًا بالملايين معرضون لعملية تغييب للعقل تهدد مستقبل الأمة العربية، وهذه العبارات الخطيرة تأتي في معرض الاستحسان، فكأنها دعوة إلى الشباب للتمسك بما فيها»[٢].

ودليل فؤاد زكريا لموقفه الناقد هذا، تلك البلبلة التي يقع فيها المطالع لقول الدكتور حسن حنفي – بعد – والمعبر عن النقد، وربما الرفض، لنفس التوجهات التي كان قد امتدحها ؛ فمن سلبيات الجماعات الدينية، خاصة الجماعة الأم جماعة الإخوان المسلمين، أن هذه الجماعة، يقول حسن حنفي، قد «ركزت على أولوية الإيمان على العقل، فصارت دينية أكثر منها عقلانية، تبدأ من الإيمان كمسلّمة لا تقبل النقاش، وبالتالي سادت العاطفة وعم التعصب أحيانًا فزاد التصلب وقل الحوار وضاق الأفق»[٣].

(١) د. فؤاد زكريا: الوهم والحقيقة. ص ٥٣

(٢) د. فؤاد زكريا: المرجع السابق. نفس الموضع

(٣) د. فؤاد زكريا: الوهم والحقيقة. ص ٥٥

وأيضًا مما ينقده الدكتور حسن حنفي، وقد مدحه من قبل «سيادة النصوص الخام سواء من الكتاب أو السنة أو من فقهاء المسلمين وأئمتهم خاصةً ابن تيمية ... مما يدل على عزلة الجماعة عن واقعها، وإيجاد بديل عنه في التراث القديم وفي واقع القدماء، مما جعلهم يسقطون عامل التاريخ والزمن من الحساب»[١]. وهذا، برأي فؤاد زكريا، ما يجعل المرء في حيرة وبلبلة، فهذه النصوص التي يعيب حسن حنفي التمسكَ بها، كانت هي نفسها الممدوحةَ سابقًا عبْر تعبيرات ضخمة مثل «حراسة العقيدة» و «الدفاع عن أصالة الأمة»[٢].

ويفسح الدكتور حسن حنفي مساحة واسعة للكلام عن جماعة «الإخوان المسلمون» باعتبارها الرافد الأساس لبقية الجماعات الإسلامية المعاصرة، وفي الوقت الذي يعدد مزاياهم وعيوبهم، يقع – برأي فؤاد زكريا – في عدد لا يستهان به من الأخطاء المنهجية والتاريخية، ما جعل معالجته، حسن حنفي، لهذا الموضوع تحشد كمًا هائلًا من الأحكام المتناقضة:

(١) د. فؤاد زكريا: الوهم والحقيقة. ص ٥٥

(٢) د. فؤاد زكريا: المرجع السابق. نفس الموضع

فالدكتور حسن حنفي يربط بين مؤسس الحركة حسن البنا[١] وبين الحركة الوطنية التحررية، لا لشيء إلا لمجرد أنه، المؤسس، كان يرى جنود الإنجليز على ضفاف قناة السويس. ما يجعل القاريء يستخلص نتيجة مؤداها الارتباط الضروري بين الدعوة الإسلامية المعاصرة وبين الحركة الوطنية في مصر. هذا الربط ينتقده فؤاد زكريا ويعتبره «مقدمة تافهة» من حيث إن «حسن حنفي قد نسي أن هذه المدينة التي كان يعيش

(١) هو الأستاذ حسن أحمد عبد الرحمن البنا الساعاتي. ولد بمدينة المحمودية بمحافظة البحيرة العام ١٩٠٦م، تخرج من دار العلوم العام ١٩٢٧م، وعمل مدرسًا ابتدائيًا بمدينة الإسماعيلية. تحاول روايات «أن تضفي عليه هالات تقترب به من القداسة، وتضفي عليه مسحة من التميز: فالأب يروي كيف سقط حسن في ملطم للمونة، وكانت وفاته محققة، لكن» ينجيك الله لأمر يدخرك له «!!! وأمه استيقظت مرةً لتجده نائمًا وأفعي ضخمة ترقد إلى جواره في هدوء لم تمسسه بسوء !!! وجنح به فرس بما يؤدي لهلاك أي شخص، لكنه نجا من الموت» !!! انظر: د. رفعت السعيد: حسن البنا. متى، أين، كيف. مكتبة مدبولي. القاهرة. ص١٠ وما بعدها، د. رفعت السعيد: التيارات السياسية في مصر. شركة الأمل للطباعة والنشر. القاهرة ٢٠٠١م ط ١ ص ١٤٨ وللمزيد عن حياة حسن البنا. انظر، وفي مواضع مختلفة: حسن البنا: مذكرات الدعوة والداعية، موسى إسحاق الحسيني: الإخوان المسلمون. كبرى الحركات الإسلامية المعاصرة، مجلة الدعوة. الأعداد الصادرة في ١٣ فبراير ١٩٥١م، ١٢ فبراير ١٩٥٢م، ١٠ فبراير ١٩٥٣م، ١٦ فبراير ١٩٥٤م، وانظر عن فعل مثل هذه الروايات المنقولة دون سند، وسبب تغلغلها وقبولها في العقلية المتلقية، وأثرها المعرفي والثقافي والاجتماعي على أنماط الفكر والسلوك ... كتابنا: أبو رشيد النيسابوري وآراؤه الكلامية والفلسفية. ص ٢٨٠، ٢٨١

فيها أيضًا تجار وعمال، كان بعضهم يتعامل مع الإنجليز ويتعاون معهم، رغم أنه، المؤسس، كان يشاهدهم كل يوم»[١].

وفؤاد زكريا يرجّح، ويؤجّل المناقشة، وجودَ «اتصالات خفية بين جماعة الإخوان، في بداياتها على الأقل، وبين السفارة البريطانية، ودور للمستر سمارت المستشار الشرقي للسفارة، في دعم الإخوان»[٢].

وهناك نماذج كثيرة لنصوص يتناقض بعضها مع بعض، وكلها تُظهر الوقوع في سرعة إصدار الأحكام، وعدم الرد على الشبهات، والمبالغة في الكلام عن المؤيدين مبالغة عاطفية:

فمن هذه النصوص قول الدكتور حسن حنفي عن الإخوان «ظل الإخوان، إذًا، طول عمر الثورة بعيدين عنها في السجون، وتم بناء مصر، وأضخم مشروع قومي منذ محمد علي، وهم بعيدون عنه، مع أنهم كانوا من دعاته وممن شاركوا في صياغاته قبل الثورة، ولم يشاهد الإخوان، وهم أحرار، تأميم قناة السويس في ١٩٥٦م وهم الذين حاربوا في ١٩٥١م لتحريرها، ولم يدافعوا عن البلاد ضد الاعتداء الثلاثي وهم دعاة الوحدة الشاملة لأطراف الأمة مع قلبها، ولم يشاهدوا بناء مصر الاشتراكية

---

(١) د. فؤاد زكريا: الوهم والحقيقة. ص ٥٨

(٢) د. فؤاد زكريا: الوهم والحقيقة. ص ٥٨، وللمزيد حول هذه الاتصالات وحقيقتها. انظر: السيد يوسف: الإخوان المسلمون وجذور التطرف الديني والإرهاب في مصر. الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة ١٩٩٩م الفصل الرابع. ص ٣٠١ وما بعدها، د. رفعت السعيد. حسن البنا. ص ٧٦: ٧٨، ١١٩

١٩٦٤:١٩٦١م وهم من أوائل الداعين للعدالة الاجتماعية والاشتراكية[١]، ولم يشاهدوا معارك مصر ضد الحلف الإسلامي في ١٩٥٦م وكانوا المدافعين عن استقلال المنطقة ضد الأحلاف العسكرية وارتباط مصر بالغرب»[٢].

لكن هذا النص يجد له تناقضًا بعد سطر واحد يقول فيه الدكتور حسن حنفي «أخرج الساداتُ الإخوانَ من المعتقلات والسجون وهو يعلم أنهم ليسوا خطرًا عليه نظرًا لعدائهم لعبد الناصر، ونظرًا لتخلفهم الفكري وعدائهم للاشتراكية وللقومية العربية والاتحاد السوفيتي وموالاتهم التقليدية للغرب، ولحرصهم على الإسلام الشعائري المظهر، وكل ذلك قاسمٌ مشترك بينه وبينهم»[٣].

---

(١) كتب الأستاذ سيد قطب كتابه «العدالة الاجتماعية في الإسلام» الذي يعد، برأينا، واحدًا من أدق الكتابات وأعمقها في مجال تناول المشكلة الاقتصادية / الاجتماعية بوجهة نظر إسلامية، فيكفي الرجل أنه «توسّط» فقهيًا ؛ فلم يهمل النص – كالطوفي – حال تعارض والمصلحة، ولم يهمل المصلحة – كالشافعي – حال تعارضتْ والنص، بل أخذ برأي المالكية الجامع بين الاثنين. وإن كانت لنا عليه مآخذ فيمكن إجمالها في أن الرجل مسكون بهاجس «تعارض» النظام الإسلامي، وبحدة، مع الفكر الغربي. والرجل ينعي «الفصام النكد» الذي وقع بين الكنيسة (الدين) والعلم، فكأنه يرى ضرورة تفسير هذا بذلك !!!. والرجل عهد على نفسه «مهاجمة» رموزنا الفكرية، كأن في ذلك دليلًا على الإخلاص للدعوة !!!، فكل ما خلا الأصول النظرية والقرآن والسنة والسيرة نتاجٌ لفلسفة اليونان ... وهي لا علاقة لها بالإسلام.

(٢) د. فؤاد زكريا: الوهم والحقيقة. ص ٦٠

(٣) د. فؤاد زكريا: الوهم والحقيقة. ص ٦١

ويعلق فؤاد زكريا على هذا النص بقوله «وهكذا ... من عمود إلى العمود المجاور، انتقل الإخوان من الاشتراكية والقومية والعدالة الاجتماعية والعداء للغرب، إلى التخلف الفكري والعداء للاشتراكية وللقومية والموالاة التقليدية للغرب»[١].

ويشير الدكتور حسن حنفي، في أكثر من موضع، إلى علاقة الإخوان بالثورة[٢] جاعلًا هذه العلاقة ذات بعد واحد. منتهيًا في تحليلاته

---

(١) د. فؤاد زكريا: المرجع السابق. نفس الموضع

(٢) مثّلت كتابات الراحل الأستاذ سيد قطب، رحمه الله، شيئًا مهمًا لبيان علاقة الإخوان بالثورة، أو – على الأقل – الرأي فيها، فنحن نعتقد أن من قام بنشر كتابات سيد قطب، بعدُ، عمدَ إخفاء جزء به يظهر رأيه، قطب، في الثورة ... تلك التي أيدها ثم عاداها بشكل «انقلابي» بدرجة ١٨٠ درجة !!!. ما يعد، برأي البعض، «انقلابات حادة، وربما عاطفية في مواقف سيد قطب»... لما أن قامت «ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢» أسماها القائمون بها، الضبّاطُ الأحرار، «الحركةَ المباركة». وأسماها خصومها «الانقلاب». لكن سيد قطب «أصرّ على أنها ثورة وينبغي أن تكون كذلك». وبحدود العلم، فإن أحدًا لم يسبق قطبًا لهذه التسمية سوى محمد نريد أبو حديد.

أعلن «الضباط الأحرار» النية عن عودتهم إلى ثُكْناتهم العسكرية، وترْك الأمر السياسي للساسة، فكتب قطب في «الأخبار» عاتبًا عليهم ذاك العزم وبشدة: «بدلًا من أن تسيروا في هذا الطريق إلى نهايته، بدلًا من أن تضربوا الحديد ساخنًا، بدلًا من أن تقتحموا أوكار اللصوص، آثرتم أن تنسحبوا إلى الثكنات، وأن تتركوا المجال إلى رجال السياسة، هؤلاء الذين امتطى الملك الراحل ظهورهم في أغراضه، واتخذ منهم أدوات لإذلال الشعب وإهانته. فابقوا باسْم الملايين الذين لن يسمحوا لكم بالعودة إلى الثكنات لأن مهمتكم لم تنته بعد، ولأن واجبكم قد بدأ وعليكم أن تكملوه»... ثم هو يطالب بـ «ديكتاتورية عادلة»!!! ...» لقد احتمل الشعبُ ديكتاتورية طاغية باغية شريرة مريضة على مدى خمسة عشر عامًا أو تزيد، =

لهذه العلاقة إلى تفسير، وربما تبرير، جنوح فريق من جماعة الإخوان نحو التطرف فالعنف، فالسبب في ذلك، برأيه، ما لقيه الإخوان في سجون عبد الناصر من الاضطهاد والتعذيب، ما أوجد لديهم نزعة قوية للانتقام والثأر، ثم جاءت حادثة المنصة في أكتوبر ١٩٧٣م صورة دراماتيكية لهذا كله.

لكن فؤاد زكريا يعتبر هذا التحليل موغلًا في التبسيط، مخلًا غاية الإخلال، تأسيسًا على اعتقاده بأن العلاقة التي قد كانت بين الإخوان والثورة – رغم واحدية النمط – كانت علاقة مختلفة بشكل جذري، حيث سعى كل فريق إلى استغلال الفريق الآخر لتحقيق مصالحه الخاصة، وبالتالي يأتي الصراع فالعنف، بكل صوره وأشكاله، عندما يشتد

= أفلا يحتمل ديكتاتورية عادلة نظيفة ستة شهور». وفي ١٢ أغسطس أضرب عمّال كفر الدوار فكتب يقول «إنها حركات لن تخيفنا، وقد كنا نتوقع أشد منها. إن الرجعية لن تقف مكتوفةَ اليدين وهي تشهد مصرعها. إنها ستدافع عن نفسها قبل أن تلفظ أنفاسها الأخيرة. إن عهدًا بأكمله يلفظ أنفاسه الأخيرة في قبضة قوية مكينة، فلا بأس أن يرفس برجليه، لكنه عهدٌ قد انتهى، عهد قد مات، إنما المهم أن نشرع في الإجهاز عليه، وأن تكون المدية حامية، فلا يطول الصراع، ولا تطول السكرات. لقد أطلع الشيطان قرنيه، فلنضرب بقوة، ولنضرب بسرعة، أما الشعب فإن عليه أن يحفر القبر، وأن يهيل التراب».

وفي «روزا» نقرأ نداءً باستبعاد «الشعب» من العمل السياسي، والاكتفاء بـ «العسكر»... «إن من مصلحة الجميع أن يظل النظام في أيدي قوة نظامية طاهرة نظيفة، وألا يقف الحمقى في طريقها، فهي أقوى من كل ما يظنون، وهي ستسحقهم سحقًا لأنها قوة الشعب كله، وطريقة القوة المنظمة في الشعب أسلم من طريقة الجماهير». يمكن الرجوع إلى: جريدة الأخبار. ٨، ١٥ أغسطس العام ١٩٥٢م، مجلة روزا اليوسف. ١٩، ٢٦، ٢٩ أغسطس العام ١٩٥٢م

التعارض وتتقاطع المصالح، ويصبح لا حسم لهذا كله إلا بشكل ما من أشكال القوة، وكان أكثر هذه الأشكال دمويةً هو حادث المنصة نظرًا لطول فترة «الود» بين الثورة، ممثلةً في الرئيس الراحل محمد أنور السادات، وبين الأخوان. ولا يخفى على الدارس أن «معظم الحركات الإسلامية خلال هذه الفترة كانت أداةً طيعة من الأدوات التي تسلطها الحكومة ضد كل اتجاه تقدمي أو ديمقراطي»[١].

وفي تحليله للسبب وراء قتل السادات بأيدي «من تحالف معهم ضد الناصريين، واستعان بهم ضد أعدائه من الوطنيين والتقدميين»[٢]

---

(١) د. فؤاد زكريا: الوهم والحقيقة. ص ٦٤

(٢) د. فؤاد زكريا: المرجع السابق. ص ٦٣، وقد تولى السادات رئاسة الجمهورية في ١٥ أكتوبر العام ١٩٧٠م وهو يشير إلى أنه كان عازفًا عن منصب رئيس الجمهورية، وكان ينوي أن يمارس عمله كنائب للرئيس إلى أن تزال آثار العدوان، ثم تجرى انتخابات، لكن هواري بومدين أشار إليه بضرورة تسمية رئيس لمصر حفاظًا على مكانة مصر ومسؤولياتها التاريخية بالنسبة للمعركة والأمة العربية ... فوافق السادات وانتخب رئيسًا للجمهورية. انظر: أنور السادات: البحث عن الذات. ص ٢٨٣، وقد ظل السادات رئيسًا منتخبًا إلى أن اغتاله أحد ضباط القوات المسلحة يوم السادس من أكتوبر العام ١٩٨١م بينما كان وسط أفراد الجيش يتابع عرضًا عسكريًا بمناسبة ذكرى النصر، والذي اغتال هو خالد الإسلامبولي وآخرون من المنتمين إلى جماعة الجهاد، منهم عبد السلام عبد العال، وحسين عباس محمد. وقد لقي مصرعه في هذا الحادث، أيضًا، كل من اللواء حسن علام كبير الياوران، ومحمد رشوان المصور الخاص بالرئيس، والأنبا صموئيل. انظر. محمد حسنين هيكل: خريف الغضب. مركز الأهرام للترجمة والنشر. مصر ١٩٨٨م ط ١ ص ٤١٠: ٤٢٨. وقد قال أحدهم، محمود الصباغ، عن هذه الواقعة «قد بلغ قمة الاستبداد والتأله على شعبٍ منحه حبه وضحّى معه بدمه عزيزًا على أرض المعركة. فهو ظلم لا يرضى عنه خالق السماوات والأرض، فسلّط عليه =

ينتهي فؤاد زكريا إلى أن ذلك تم لأن السادات «كان هو الأقرب إليهم، كما توهموا، طوال فترة المهادنة بينه وبينهم، ونظرًا لاعتقادهم بأنه هو الأقرب إليهم فقد بنوا عليه آمالًا كبيرة، وشجعهم هو ذاته على الاعتقاد بأنه يقترب بهم كثيرًا من أهدافهم، وأعطاهم كل فرص الانتشار، فاستجابوا له بترحيب شديد، وتصوروا أن دولتهم أوشكت على التحقق، غير أن السادات، الذي كانت له دائمًا حساباته ومشروعاته الخاصة، خيّب ظنهم في السنتين الأخيرتين من حكمه، فقد أخذ يتباعد لأنه مضطر إلى عمل حساب علاقاته الخارجية بالغرب، وحماية الملايين من المواطنين المسيحيين الموجودين في أرضه كحقيقة واقعة، وانتقل من التباعد إلى الهجوم الفعلي عندما زادت قوة هذه الجماعات عن الحدود التي كان يرسمها، وتجاوَز نشاطُها الأهدافَ التي كان يخططها لهم، كما أخذوا هم يتباعدون لأنهم شعروا أن هدفهم الذي بدا أنهم قد اقتربوا منه، وهو التطبيق الكامل، والفوري، للشريعة الإسلامية، أصبح بعيدًا عن التحقق. وهكذا كانوا أعنف مع السادات الذي دللهم طويلًا، منهم مع عبد الناصر الذي عذبهم وقتلهم، لأن الأول اقترب بهم كثيرًا من

= شبابًا من شباب مصر، وأظلّهم بظله، فباغتوه في وضح النهار وهو في أوْج زينته وعزه، يستعرض قواته المسلحة ولا يرى فيهم إلا عبيدًا، له ينحنون، وبقوته وعظمته يشهدون، وإذا بهم سادة يقذفونه بالنار، ويدفعون عن أنفسهم الذل والعار والشنار، وعادت لمصر عزتها، وانتصر الله للمؤمنين نصرًا عزيزًا» !!!.

أهدافهم، ثم اتضح أنه كان يخدعهم، ولم يكن مستعدًا للمضي في الاستجابة لهم إلى النهاية»[١].

ويؤكد فؤاد زكريا، في غير موضع من كتابه هذا، أن هذا الصدام، أو تلك المواجهة، لم تكن قائمةً بين الثورة والإسلام.

إن ثورة يوليو لم تكن، بحال، وفي أي من مراحل عمرها، غيرَ مكترثةٍ بالدين، بل ظلت تعلن تمسكها به وبشعائره عبر أكثر من مسلك عملي يدل على ضرورة فهم الدين بطريقة عملية تُعنى، في المقام الأول، والأهم، بالناس[٢].

(١) د. فؤاد زكريا: الوهم والحقيقة. ص٦٤، ٦٥

(٢) لعل الدليل على ذلك، مثالًا لا حصرًا: زيادة أعداد المساجد ودور العبادة، وتطوير الأزهر بحيث يتخرج الطالب صاحب الدراسة العلمية غير الدينية وهو مزود بقدر طيب من العلوم الشرعية، وإنشاء المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، وإنشاء مدينة البعوث الإسلامية، خصيصًا لإقامة المسلمين غير المصريين ليدرسوا في الأزهر على نفقة مصر، وإنفاذ البعثات الدينية إلى كل، أو معظم، الدول الإسلامية لتدريس الإسلام، وتحقيق وطباعة كتب التراث الإسلامي في مظانه بأسعار كانت في متناول الغالبية الساحقة من المصريين ... وغير ذلك كثير مما لا تصح، ولا تقنع، المزايدة عليه.

جذور العنف

وتحت هذا العنوان يحفر الدكتور فؤاد زكريا محاولًا الإجابة عن أسئلة لها تعلق بـ «نوع العقلية أو التركيبة الذهنية للشاب الذي يقوم بمثل هذه الأعمال البطولية الخارقة، من أجل أسباب شكلية خالصة، ويضحي بحياته في سبيل فتوى مأخوذة في عصر بعيد وظروف مختلفة كل الاختلاف»[١].

ويرى فؤاد زكريا أن العنف ليس ظاهرة طارئة على الجماعات المتطرفة[٢]، وإنما هو «شيء ينتمي إلى تركيبها ذاته، وهو جزء لا يتجزأ من تكوينها الذهني والنفسي، وهو وسيلتها الوحيدة لتحقيق أهدافها في المجتمع»[٣].

ويقرر فؤاد زكريا أن الأسباب التي يتسربل بها الداعون إلى العنف لا يمكن أن تقنع عقلًا تعوّد أن يفكر بطريقة منطقية نقدية متروية، فهو، العنف، لا يقتنع به إلا من تعوّد الطاعة العمياء والإذعان والتسليم والاستسلام بشكل غاية في السلبية، جاعلًا من الآخرين أصحاب القرار له، صانعًا منهم أبطالًا لما

---

(١) د. فؤاد زكريا: الوهم والحقيقة . ص ١١٠

(٢) انظر في تفصيل ذلك: السيد يوسف. الإخوان المسلمون. ص ١٩٩ وما بعدها، د. رفعت السعيد: حسن البنا. ص ١٢٣ وما بعدها، د. رفعت السعيد: التيارات السياسية في مصر. ص ١٣٥ وما بعدها، د. عبد العظيم رمضان. جماعات التكفير في مصر. الأصول التاريخية والفكرية. الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة ١٩٩٥م . مواضع مختلفة.

(٣) د. فؤاد زكريا: الوهم والحقيقة. ص ١١٠

عجز هو عن القيام بأي دور أو فعل، إنْ على المستوى الشخصي أو المستوى الأسري أو المستوى الاجتماعي !!!.

ويرى فؤاد زكريا أن المسؤول عن انتشار مثل هذه العقلية المستسلمة المطيعة غاية الاستسلام والطاعة، أنما هو نظام الحكم في سنوات الثورة الأولى، فالأمر، برأيه، أن هناك «علاقة عضوية وثيقة بين أسلوب الحكم الذي سارت عليه ثورة يوليو، وبين انتشار التطرف الديني ؛ ذلك لأن أسلوب الحكم هذا كان يتجه بطبيعته إلى أن يطبق على الشعب كله نفس القيم السلوكية المطبقة في الجيش، ويميل إلى جعل العلاقة بين الحاكم والمحكوم أشبه بالعلاقة بين القائد وجنوده، لا بين مواطنين أكفاء متساوين. وهكذا كان المواطن الذي اتجه عهد الثورة إلى تشكيله هو المواطن المطيع الذي يمتنع، قدر الإمكان، عن التحليل والمناقشة والتفكير المستقل، والذي يفكر له الزعماء والقواد، وما عليه إلا التنفيذ. ومن هنا فإن ما بين الحكم العسكري والتطرف الديني ليس إلا شعرة. ففي الحالتين نجد تفكيرًا سلطويًا وطاعةً عمياء واعتقادًا بامتلاك الحقيقة المطلقة، ورفضًا للرأي الآخر، بل معاملته على أنه خيانة أو كفر، وفي الحالتين تسود القوة على المنطق، وتحسم المعارك بالتصفية لا بالحوار، ويُصادَر حقُّ العقل في الاعتراض واتخاذ موقف مستقل، وتختفي المنابر الإعلامية التي تُنمّي في الناس ملكة التفكير النقدي»[1].

ويربط فؤاد زكريا بين العنف والتكفير ؛ فأصحاب دعاوى العنف ينظرون إلى الدولة، في هذا العصر، على أنها كافرة، بل إن المسلم الذي لا يساير

(١) د. فؤاد زكريا: الوهم والحقيقة. ص ١١١، ١١٢

تفسيراتهم يعد، بنظرهم، كافرًا، وتصبح كلمة «كافر» أكثر الكلمات ترددًا على ألسنة هؤلاء وفي كتاباتهم[١].

وينبه فؤاد زكريا إلى ضرورة الحذر والانتباه، حيث إن «صفة الكفر هذه ليست، في الإطار الفكري لهذه التنظيمات، شيئًا هينًا على الإطلاق، فهي لا تعبّر عن معارضة أو استنكار أو نقد عقلي فحسب، بل إنها إدانة كاملة وإحلال للدم والمال، ومحو من الوجود. وكل من تُلصق به هذه الصفة ينبغي استئصاله وإلغاؤه وإخراجه من مجال الفكر والواقع !!!. فالتكفير حكم بالإعدام، يتخذ طابعًا معنويًا طوال الوقت الذي لا تكون فيه القدرة على تنفيذه الفعلي متوافرة، ولكن بمجرد أن تكتمل هذه القدرة يصبح تنفيذه أمرًا ضروريًا، ويتم تطبيقه

(١) نلمح، هنا، محاولة دعوات العنف الربط بين الدين والفكر الديني، وهذا برأينا، خطأ كبير ... من حيث إن الدين تنزيل إلهي معصوم، بينما الفكر الديني لا يتجاوز كونه محاولة بشرية لفهم هذا التنزيل الإلهي المعصوم، وبالتالي يكون الفكر الديني غير معصوم، ويكون الخلط بينهما خطرًا عليهما معًا. ولتفصيل أشمل ... انظر قول طارق البشري عن أن محاولة الربط بين الدين والفكر البشري الساعي لفهم الدين، تعد محاولة للسيطرة على الدين لا الاتصاف به. طارق البشري: الحركة السياسية في مصر ١٩٤٥م ١٩٥٢م ط ١ ص ١٨٣ وما بعدها. وما قاله البعض عن أن أي اضطهاد لجماعة الإخوان أنما هو اضطهاد للإسلام ذاته !!! . مجلة الدعوة. عدد ٢٤ أبريل سنة ١٩٥١م نقلًا عن د. رفعت السعيد: التيارات السياسية. ص ١٤٦. وللأستاذ الدكتور رفعت السعيد تعليقات مهمة لها تعلق بهذا الموضوع. انظر: د. رفعت السعيد: التيارات السياسية. ص ١٣١ وما بعدها.

عمليًا بكل هدوء نفس وراحة ضمير!!!، لأنه يصبح عندئذ واجبًا دينيًا، ومثوبة في الدنيا ومدخلًا إلى الجنة في الآخرة»[١].

وينهي فؤاد زكريا هذا الجزء «المهم» من كتابه «المهم» بأمنية لعل آخرين سبقوه إلى تمنيها عسى أن يسود العقل مناشط الحياة بشكل أو بآخر ... أن يأتي يوم «يصل فيه الذين يفكرون إلى المستوى الذي يتيح لهم أن ينقلوا أفكارهم إلى حيز الفعل المؤثر والفعّال، أو يصل الذين يفعلون إلى المستوى الذي يدركون فيه قيمة الفكر المتفتح والعقل المستنير»[٢].

(١) د. فؤاد زكريا: الوهم والحقيقة. ص ١١٣، ولعل هذا التجرؤ من البعض على من يخالفه الرأي أن يكون ذا جذور ضاربة في تاريخنا الفكري ؛ فقد بيّنا كيف أن عبد القاهر البغدادي، قديمًا، كان يرى في المعتزلي، والمعتزلة فرقة فكرية إسلامية يختلف معها البغداي شكلًا وموضوعًا، أنه لا تجوز الصلاة عليه، وأن دماء المعتزلة وأموالهم حلال للمسلمين، وليس على قاتل المعتزلي قود ولا دية ولا وكفارة، بل لقاتله عند الله القربة والزلفى !!!.

(٢) د. فؤاد زكريا: الوهم والحقيقة. ص ١١٦

obeikandl.com

المسألة الدينية في مصر المعاصرة

وهذا هو آخر عنوان في هذا الكتاب، وهو عنوان تضمّن ثلاث دراسات: دعوة إلى الحوار، وثورة يوليو والجماعات الإسلامية، وأخيرًا تطبيق الشريعة الإسلامية. وهذه الدراسة الأخيرة اشتملت دراستين فرعيتين: واحدة بعنوان «محاولة للفهم» وأخرى بعنوان «حوار جديد».

وواضح من هذا الجزء من الكتاب أنه محاولة من الدكتور فؤاد زكريا لطرح رأيه حول موضوع من أهم الموضوعات في تاريخ مصر المعاصر: وهو المسألة الدينية.

وتحت عنوان «دعوة إلى الحوار» ترصد الدراسة فريقًا يرى أن الحوار مع رموز هذه المسألة الداعين إلى تطبيق الشريعة الإسلامية يجب أن يتوقف، فهؤلاء الرموز، رجعيون متزمتون، يريدون إرجاع عقارب الساعة إلى الوراء، ولا يقيمون وزنًا لحقائق العصر وظروفه المتجددة ... يقول الرافضون.

لكن فؤاد زكريا يلح على ضرورة الحوار مع هذه الرموز الممثلة للتيار الديني في مصر، حتى لو صدقت بعض الأوصاف التي يصفهم بها الرافضون للحوار، أو حتى صدقت كلها، فإن توقّف الحوار معهم لن يفيد بل قد يضر، ومؤكد أنه سيضر !!! خاصة إذا علمنا أن هذا النفر على اعتقاد كامل وإيمان شديد بأنهم يريدون الإصلاح، بل هم يغلقون

صدورهم على عقيدة قوية مؤداها أنهم وحدهم هم من يملك طريق الخلاص لهذه الأمة من كل مشاكلها، وعلى كل الصعد !!!.

ولفؤاد زكريا لموقفه هذا أربعة تبريرات:

أولها: أن المناداة بتطبيق الشريعة، والقول المعاكس لها، ليسا بالأمر الهين حتى نغلق بابًا فنستريح حين لا يأتينا منه ريح !!! فهذه المسألة شديدة الإلحاح، لأن رموزها يعتقدون أنه بمجرد التطبيق الفوري لأحكام الشريعة سوف تنزل عصا سحرية تحل كل مشاكلنا الآنية، وربما المستقبلية. على حين يرى فؤاد زكريا أن الخطورة فيما سيأتي بعد، لأن هذا التطبيق الفوري «سوف يغير أسلوب حياة الفرد والمجتمع، يؤثر على كل منا في سلوكه الشخصي وحياته العائلية وروابطه الاجتماعية، وفي نوع التعليم الذي يتلقاه، ونوع الثقافة التي يتزود بها، ونوع الإعلام الذي يوجَه إليه، كما يؤثر على المجتمع في أسلوب الحكم واتجاه التشريع، وطريقة التصرف في موارد الدولة، وشكل العلاقات الخارجية التي تربطها بالعالم»[1].

لهذا كله يعيب فؤاد زكريا على جمهور المثقفين أنهم وقفوا ما بين السلبية واللامبالاة، أو المجاملة والتملق لعواطف فريق المنادين بالتطبيق، وهذه المسألة من الخطورة بحيث لا تقبل أنصاف الحلول،

(١) د. فؤاد زكريا: الصحوة والخطر، ص ١٢٠

وهي، هذه المسألة، ليس لها حل يرضي جميع الأطراف !!! فلا يصلح فيها السلبية واللامبالاة، ولا يصلح فيها المجاملة والتملق.

الثاني: اعتقاد فؤاد زكريا أن هناك أعدادًا لا يستهان بها لديها قناعة شديدة بصدق هذه الدعوى، وهذه الأعداد الغفيرة تضم كثيرين من أصحاب النوايا الحسنة الطيبة الذين يحاولون إصلاح أنفسهم ومجتمعهم من خلال الالتفاف حول داع متحمس لهذه الدعوى، والملاحظ أن هذا الداعي سيكون، في الغالب الأعم، على غير استعداد لسماع رأي يخالف رأيه، إضافةً إلى ضعف ثقافته العامة والخاصة، وهناك نماذج، حتى من بين التخصصات العلمية الدقيقة، تخضع مفاهيمهم العلمية لطريقة خاصة في الإيمان. وهنا يُطالب فؤاد زكريا بضرورة نهج أسلوب خاص يتم من خلاله التعامل والتحاور مع هؤلاء ليعرفوا أكثر ويفهموا أعمق، وذلك من خلال بيان وجهات النظر المتعددة في الموضوع الواحد، وبالتالي فهؤلاء «يفتقرون إلى الحوار الذي يدور على أساس من احترام نواياهم الطيبة ورغبتهم في الإصلاح، وينبههم إلى الأخطاء القاتلة التي يقع فيها موجهوهم الفكريون ومرشدوهم الروحيون، وأي أسلوب آخر في التعامل لن يزيدهم إلا اقتناعًا بموقفهم وانطواءً على أنفسهم»[1].

الثالث: أن الخلاف بين فريقي المنادين بالتطبيق والمعارضين للتطبيق يكمن، بصورة أشد، في أسلوب التفكير ؛ فالفريق الأول يعتقد أصحابه في قضاياهم بشكل إيماني تسليمي، لأنهم تعوّدوا الإذعان والتسليم بشكل

(١) د. فؤاد زكريا: الوهم والحقيقة . ص ١٢١

مطلق، فيعز عليهم أن يناقشهم أحد ... إنهم لم يناقش ... !!! وقد تحولت آراء معلميهم إلى نصوص وتعاليم ثابتة تُحفظ وتُردد ويتم الاستشهاد بها في كثير من المواقف لحسم هذه المواقف بطريقة جاهزة ورادعة. فكأننا – هنا – قد حوّلنا النص الثانوي إلى نص أوّلي[1].

إن هذا الحوار يفيد إفادة عظيمة في «إخراج هؤلاء الشبان ذوي النوايا الطيبة من سجن النصوص والاقتباسات والاستشهادات إلى رحابة الفكر العقلي وسماحته، فهو يفتح أمامهم آفاقًا جديدة لم يكن مسموحًا لهم، داخل جماعتهم، بالاقتراب منها، ويعينهم على استخدام ملكة العقل التي صورها لهم البعض وكأنها رجس من عمل الشيطان، وليست أعظم ما

(١) نسوق لذلك مثالًا ... ذكرنا، من قبل، أن ابن الجوزي يروي – وبدون تمحيص – عن أحد قوله «ولما مات المعري، رأى (بعض الناس !!!) في منامه كأن أفعيين على عاتقي رجل ضرير، قد تدليا إلى صدره، ثم رفعا رأسيهما، فهما ينهشان من لحمه وهو يستغيث. فقال: من هذا ؟ فقيل: المعري الملحد»!!! وهكذا أصبح هذا المنام»سندًا «لمن يأتي بعد ابن الجوزي ... ولله الأمر من قبل ومن بعد. انظر: ابن الجوزي: المنتظم. ج ٨ ص ١٨٨ نقلًا عن د. عائشة عبد الرحمن: أبو العلاء المعري. الهيئة المصرية العامة للكتاب.القاهرة . سلسلة الأعلام. رقم ٦ سنة ١٩٧٥م ص ١٦٨. ولنا أن نلاحظ أن الرواية تعتمد على أمور هي أدخل في باب العواطف الساذجة ؛ فبعضهم حكى أن بعضهم رأى !!! وأحدهم سأل وأحدهم أجاب !!! ولا نعرف من «بعضهم» هذا، ولا من «أحدهم» ذاك. ثم يأتي «أحدهم» بعد ابن الجوزي فيأخذ هذا النص، الذي هو حكاية في رواية، كأنه أمر مسلم به، ونصدر أحكامًا نعطيها صفة القطعية بتخليد من يخالفوننا الرأي في النار، وتدور عجلة الاستسهال الفكري وما يتبعها، ضرورةً، من تنويم للعقل وتعويم للقضايا العالقة في حياة ومصير الأمة. وانظر حكايةً شبيهة بحكاية ابن الجوزي: الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد. دار الكتب العلمية. بيروت. ج ١٢ص ١٦٦، ١٦٨: ١٨٨

أنعم به الله على البشر. ومن المؤكد أن اكتشاف عالم التفكير المنظم الذي يزن الأمور بميزان العقل والمنطق كفيل بأن يخلّص هؤلاء الشباب من أخطاء فادحة، أو على الأقل يفتح أمامهم باب التفكير المستقل في الأمور التي لم يحاولوا من قبل إخضاعها لأي نوع من المنطق»[١].

الرابع: أن مثل هذا الحوار سيكون فاتحةً طيبة تُعوّد الجميع كيف التعامل مع المخالفين في الرأي، فرغم حدة الانقسام في المجتمع المصري، لم نجد حوارًا بين طرفين مختلفين، فكأن كل واحد يعتقد صواب رأيه ويجزم بخطأ رأي من يخالفه، حتى إذا أراد طرف نقد الطرف الآخر، فهو ينقده بين أنصاره لا أنصار الخصم، وبفهمه هو لا بفهم الخصم، وهكذا كأن الأفكار، عندنا، تسير في اتجاه واحد !!!. فبهذا الحوار يتعود المجتمع «أن هناك آخرين» .

إن فؤاد زكريا يلح – بقوة – على ضرورة هذا الحوار، من حيث إن «القضية المتنازع عليها قضية مستقبل أمة بأسرها، ومن ثم فهي من القضايا التي لا تكفي فيها القرارات الإدارية أو الأحكام القضائية، بل إنها إذا لم تحسم داخل عقول الناس، أولًا وقبل كل شيء، فسوف تعود إلى الاشتعال مرةً بعد مرة، وقد يصبح اشتعالها في المرات القادمة أخطر بكثير»[٢].

(١) د. فؤاد زكريا: الوهم والحقيقة. ص ١٢٢

(٢) د. فؤاد زكريا: الوهم والحقيقة. ص ١٢٣

وتحت عنوان «ثورة يوليو والجماعات الإسلامية» تبقى علاقة الثورة بجماعات التدين، خاصةً تلك المصطبغة بصبغة سياسية، علاقة فارقة ؛ فانحياز الثورة لقاع المجتمع المصري اجتماعيًا واقتصاديًا وثقافيًا، سحب – بها – البساط من تحت أقدام معارضيها من رموز التيار الديني، ولهذا سعى هؤلاء إلى تصوير الخلاف بينهم وبين الثورة على أنه خلاف بين الثورة والإسلام !!! موحّدين بذلك، في جرأة يُحسدون عليها، بين ذواتهم والإسلام، وفي هذا التوحيد خلط وخبط مغلّف بما يشد الجماهير العريضة نحو هذه الرموز[١]، حتى قال أحدهم، لما قُبض على بعض عناصر جماعة الإخوان،: إن الإسلام سجين !!! وقال آخر: كل مسلم يجب أن يعتقد أن منهج جماعة الإخوان كله من الإسلام، وأن أي نقص منه نقص من الفكرة الإسلامية الصحيحة[٢]. وقال ثالث: إن أي اضطهاد للإخوان هو اضطهاد للإسلام ذاته[٣]. وقال رابع عن نفسه: إن الإمام هو واسطة

(١) انظر في تفصيل أشمل: د. نصر حامد أبو زيد: نقد الخطاب الديني. دار سينا للنشر مصر ١٩٩٤م ط ٢ ص ٧٨ وما بعدها.

(٢) حسن البنا: مذكرات الدعوة والداعية. ص ١٣٨

(٣) مجلة الدعوة: عدد ٢٤ إبريل سنة ١٩٥١م... وقد سبق وقالوا في الملك فؤاد وفاروق أكثر من ذلك ... ففي فؤاد: «لا زلتم للإسلام ذخرًا وللمسلمين حصنًا».

... وفيه لما مات «مات الملك يحيا الملك: مصر تفتقد اليوم بدرها في الليلة الظلماء، ولا يجد النور الذي اعتادتْ أن تجد الهدى على سناه. من للفلاّح والعامل ؟ من للفقير يروي غُلته ويشفي علّته ؟ ومن للدين الحنيف يردّ عنه البدع ؟ ومن للإسلام يعزّ شوكته ويعلي كلمته ؟ ومن للشرق العربي يؤسس وحدته ويرفع رايته ؟»!!!. =

العقد، ومجمع الشمل، ومهوى الأفئدة، وظل الله في الأرض[١].

ولعل أشهر خلافات الثورة مع معارضيها أن تكون بينها وبين الجماعات الدينية المعاصرة، تلك التي أشاعت مقولة إن تاريخ العلاقة بين الثورة وهذه الجماعات إنما هو تاريخ اضطهاد. وراحت تلك الجماعات تلعب على وتر الحس الديني، خاصة بين الشباب المنتمي إلى الطبقات الوسطى، وربما الدنيا، حتى صارت هذه المقولة بديهية لا تُناقَش[٢].

= ... وفي فاروق واصفين إياه «بسمو النفس وعلو الهمة وأداء فرائض الله واتباع أوامره واجتناب نواهيه. فهو المربِّي والأستاذ والمثل الأعلى». و «إن ٣٠٠ مليون مسلم (!!!!!!!!!) في العالم تهفو أرواحهم إلى الملك الفاضل الذي يبايعهم على أن يكون حاميًا للمصحف فيبايعونه على أن يموتوا بين يديه جنودًا للمصحف، وأكبر الظن أن الله قد اختار لهذه الهداية العامة الفاروق، فعلى بركة الله يا جلالة الملك ومن ورائك أخلص جنودك»!!!. و «إن الإخوان رأوا بمناسبة حضور جلالة الملك فاروق من الإسكندرية ومباشرته سلطته أن يحتفلوا بهذه المناسبة، وأن يعقدوا مؤتمرهم الرابع بالقاهرة. وقد قرر مكتب الإرشاد العام للإخوان المسلمين الاحتفال بحضور جلالة الملك المعظّم فاروق الأول وتسلمه مهام ملكه السعيد، وتقديم فروض التهنئة والولاء بهذه المناسبة الميمونة». و «فاروق أسوة حسنة، وفخر الشباب، وحامي المصحف، وأمير المؤمنين، وحامي حمى الدين، وأنه يُحْيي سنة الخلفاء الراشدين». و «إن الملك أعاد صورة سالفة، صورة الرسول الكريم حينما طلع على أنصاره طلوع البدر»!!!!!!!!!!!!!!!!.

(١) حسن البنا: رسالة المؤتمر الخامس. ص ٤٨ نقلًا عن د. رفعت السعيد: التيارات السياسية . ص ١٤٦ وما بعدها.

(٢) د. فؤاد زكريا: الوهم والحقيقة. ص ١٢٧

ويكمن مخطط هذه الجماعات في نشر هذه المقالة، وأشباهها، أن تُوجِد تبريرًا، وهو – برأينا – ملفّق، للعنف الذي صدر – بعد – عن عناصر منتمية إلى هذه الجماعات، هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية، تسعى هذه الجماعات إلى إيهام المجتمع أن الثورة قد وقفت موقفًا معاديًا من الإسلام، فكأن رموز هذه الجماعات يوحّدون «بين جماعاتهم وبين الإسلام ذاته، ويرون في العنف الذي عوملت به هذه الجماعات دليلًا على موقف سلبي تجاه الإسلام نفسه»[١].

ويعلق فؤاد زكريا على هذه النصوص بقوله «وليس أبعد عن الصواب – في رأيي – من هذا الاستنتاج، فالإسلام لا يمكن أن ينحصر في هذه الجماعة أو تلك، ولا يرتبط مصيره بوجود فريق معين من الإسلاميين داخل السجن أو خارجه. ولا شك أن من أكبر الأخطاء التي يمكن أن ترتكبها جماعة معينة أن تتصور نفسها مسؤولة، وحدها، عن الدين، وتُوهِم الناسَ بأن الهجوم عليها هجومٌ على الدين ذاته. فها هنا نجد توحيدًا باطلًا بين الجزء وبين الكل الذي هو أوسع منه بما لا يُقاس»[٢].

إن الدارس لتاريخ العلاقة بين الثورة والجماعات الدينية يلحظ ملمحًا على قدر من الأهمية، وهو أن الخلاف / الصدام الذي قد كان بين الثورة وهذه الجماعات لم يكن – قط – دينيًا، بل كان سياسيًا ؛ فلم يحدث صدام في أية مرحلة من المراحل «إلا عندما كانت السلطة تعتقد أن جماعة دينية

(١) د. فؤاد زكريا: المرجع السابق. ص ١٢٧، ١٢٨

(٢) د. فؤاد زكريا: الوهم والحقيقة. ص ١٢٨، وانظر كتابنا: أبو رشيد النيسابوري. ص ٣٣

معينة أصبحت تُشكّل خطرًا على النظام، أو على الدولة، أو – على الأقل – على الأمن والاستقرار العام»[١].

ويعني هذا التحليل الراصد لهذه الخلافات / الصدامات أنها كانت صدامات ذات جوهر سياسي لا عقدي، من حيث إن الصراع قد كان معبرًا عن قوى لا أفكار.

ويدلل فؤاد زكريا على صحة هذه الفرضية: وهي أنه لم تكن هناك، طوال عمر ثورة يوليو، معركة حول أي عنصر من عناصر العقيدة الإسلامية، بقوله «يمكن القول إن الاهتمام بالمسائل الدينية كان خلال عمر الثورة يفوق كل ما كان موجودًا طوال فترة حكم الأحزاب الممتد من ١٩١٩م إلى ١٩٥٢م، ويكفي، دليلًا على ذلك، إنشاء مؤسسات كالمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، الذي كان يصدر بانتظام عددًا كبيرًا من الكتب والمجلات الدورية، وكان له نشاط واسع في كافة المناطق التي تحتاج فيها الدعوة الإسلامية إلى رعاية، وخاصة في إفريقيا والشرق الأقصى. كما اتسع نطاق الإعلام الديني في مرافق الإعلام كافةً اتساعًا هائلًا بالقياس إلى ما كان موجودًا من قبل، وأُعطيتْ فرص كبيرة لوجهات النظر الدينية كيما تعبّر عن نفسها بقدر من الحرية لم يكن مسموحًا به على الإطلاق لوجهات النظر العلمانية التي كانت تُدلي بآرائها بحرية في الفترة السابقة على قيام الثورة. كذلك ازدادت كثافة المقررات الدينية في مراحل التعليم

(١) د. فؤاد زكريا: الوهم والحقيقة. ص ١٢٨

العام والخاص، وحدث توسع كبير في حركة تشييد المساجد وتزويدها بوسائل الدعوة والإبلاغ»[1].

ونحن، بذلك، نخلُص إلى نتيجة مؤدّاها أن الزعم بأن الثورة كانت تضطهد الدين نفسه من خلال علاقتها المتذبذبة ببعض الجماعات الدينية هو زعم باطل وعار عن الصحة، وأنه استخدام نفعي، لأن التنافس لم يكن له وجود إلا على الساحة السياسية لا الدينية، وكل ما في الأمر أن مفردات دينية استخدمت في مجال السياسة فأفرزت نتائج سياسية بحسب مقدمات دينية، وهذا إجراء دالّ على قصور في التصورات والمفاهيم.

إن إعادة قراءة لمفردات بعض الجماعات الدينية ستنتج مقولة، لها خطرها، يروّج لها زعماء هذه الجماعات، ترى أن هزيمة ١٩٦٧م كانت العامل الأساس وراء حصول هذه الجماعات على طابعها وشرعيتها في الشارع السياسي، حتى وصفت هذه الجماعات نفسها بأنها رد فعل على الهزيمة !!! لكن الواضح أنه بينما انكسر السلاح العربي بهزيمة – ولا نقول، تجمّلًا، نكسة أو نكبة – ١٩٦٧م فإن الإرادة العربية، والمصرية تحديدًا، لم تنكسر ؛ فقد قام الشعب المصري بكل طبقاته وفئاته بمظاهراته الشهيرة عام ١٩٦٨م بعد الأحكام المائعة التي صدرت على بعض مسؤولي الهزيمة من العسكريين، وطالب بأحكام تتفق وحجم الهزيمة / المأساة / الخسارة الوطنية والقومية، وبالكف عن العبث والاستهتار

(١) د. فؤاد زكريا: الوهم والحقيقة. ص ١٢٩

بعقول الأمة[١]، ما يمثّل دليلًا على أن رد الفعل الأول والتلقائي على هزيمة ١٩٦٧م لم يأت «على يد الجماعات الدينية، ولم يكتسب طابعها الخاص، ولم يبدأ نفوذ هذه الجماعات في الانتشار على نطاق واسع بين طلبة الجامعات، وفي أروقة المساجد، وعلى المستوى الشعبي العام، إلا بعد حرب ١٩٧٣م التي استطاعت أن تمحو، بطريقة جزئية على الأقل، تأثير هزيمة ١٩٦٧م»[٢].

هذه واحدة، وأخرى ... أنه لو كان ظهور هذه الجماعات رد فعل على الهزيمة للزم أن تقدم هذه الجماعات برنامجًا كاملًا يشمل كل الصعد السياسية والعسكرية والاجتماعية والاقتصادية، يساعد على تجاوز الهزيمة، ومثل هذا لم يحدث، بل ركزت هذه الجماعات على أمور موغلة في الشكلية «لا علاقة لها بحياة الناس الفعلية أو بالمشاكل الحقيقية التي يعانيها المجتمع، كاللحية والحجاب ومنع الاختلاط ورفع أصوات المؤذنين إلى أقصى حد تسمح به تكنولوجيا لم يعرفها الإسلام الأصيل، وكانت الأمور المتعلقة بالجنس، وغيرة الرجل الشرقي على المرأة ورغبته في حجبها عن عيون الآخرين، وسوء ظنه الدائم بأخلاق الغير، بل بنظرات، عيونهم، تلعب دورًا لا يتناسب على الإطلاق مع حجمها الحقيقي في حياة الناس، وتساعد على تجنيد الرجال عن طريق إثارة

(١) انظر في ذلك: أمين هويدي: ٥٠ عامًا من العواصف. ما رأيته قلته. مركز الأهرام للترجمة والنشر. مصر ٢٠٠٢م ط ١ ص ١٨٧: ٢١٨، محمد حسنين هيكل: حرب الثلاثين سنة. الانفجار. مركز الأهرام للترجمة والنشر. مصر ١٩٩٠م ط ١ ص ٩٠٩: ٩٢٩

(٢) د. فؤاد زكريا: الوهم والحقيقة. ص ١٣٤

حميتهم الشرقية على «حريمهم»، وعلى تجنيد النساء إذ تبشرهن برضاء الرجل عن احتشامهن وتعففهن . ولكن ... هل سمع قاريء واحد عن برنامج لأية جماعة دينية اشتمل على خطط محددة لمواجهة الأزمة الاقتصادية، تعمل حسابًا لمواردنا ومصروفاتنا، وميزان مدفوعاتنا، والعلاقة بين القطاعين العام والخاص، والتزاماتنا تجاه البنوك الدولية، وأعباء القروض التي تثقل كاهلنا ؟ هل تضمنت كتيبات الدعوة رأيًا واضح المعالم قابلًا للتطبيق في موضوع التنمية، أو مشكلة الاستقلال والتبعية، أو مشاكل التعليم الجامعي والتعليم العام والخاص ؟ والأهم من ذلك ... هل وضعت أية جماعة دينية خططًا عملية محددة لمواجهة إسرائيل والقوى المساندة لها ؟ ولتسليح الجيش وتعبئة الموارد القومية من أجل معركة الثأر التي كان الشعب في السنوات التالية للهزيمة ينتظرها بصبر نافد ؟ باستثناء بعض العبارات العامة التي تدور حول عداء اليهود للإسلام وضرورة حشد المسلمين لكل ما يملكون من قوة ؟»[1].

وهكذا ... بدّد فؤاد زكريا محاولة الجماعات الدينية العزف على الوتر الوطني، بزعمهم أنهم أنما جاءوا رد فعل على الهزيمة، تلك التي لم تنكسر بها إرادة الشعب المصري، حيث خرج هذا الشعب – بُعيد الهزيمة – يبرهن على معدنه الحضاري الأصيل: فمرةً بضرب المدمرة إيلات، وأخرى بمظاهرات ١٩٦٨م، ثم جاءت حرب الاستنزاف المجيدة، حتى

(١) د . فؤاد زكريا: الوهم والحقيقة. ص ١٣٤، ١٣٥

جاءت ساعة القصاص والثأر بحرب أكتوبر ١٩٧٣م تلك التي أبانت للعالم معدن المصري الذي لا يصدأ وإنْ علاه التراب طويلًا.

ثم ... وتحت عنوان «تطبيق الشريعة . محاولة للفهم» ينفي الدكتور فؤاد زكريا وصف شعب من الشعوب بصفة ثبوتية على سبيل التأبيد، خاصةً إذا أُريدَ – من وراء هذه الصفة – صرف الانتباه عن أمر يعد مهمًا ومؤثرًا في حياة الشعب، فـ «القول بأن طبيعة الشعب المصري لا تعرف العنف والإرهاب في الدين، لا يشكل حجةً يعتد بها، بل إنه قد يكون تخديرًا متعمدًا؛ فقد ظل الشعب الإيراني يُعاني من وحشية السافاك سنين طويلة، وتركت هذه المعاناة آثارها على أجساد الألوف من شبابه وعلى شواهد قبور ألوف غيرهم، فلما حدثت الثورة الدينية عادت فرق الإعدام والمحاكمات الفورية، وفُرض على الشعب – الذي خرج لتوه من استبداد ملك طاغية – ستار كالح من الكآبة والعبوس والتزمت. ومن جهة أخرى، فلا يظن أحد أن من طبيعة الشعب السوداني أن يتجمع في الميادين العامة لكي «يستمتع» بمشهد الأيدي وهي تُقطّع، أو الظهور وهي تُجلد. ومع ذلك فإن هذا قد حدث، لا على يد ثورة إسلامية كاملة، بل بعد تحوّل مفاجيء نحو الإسلام، لم يكن آخر حلقة في سلسلة التقلبات التي تنقّل بينها الحكم السوداني السابق»[1].

(١) د. فؤاد زكريا: الوهم والحقيقة. ص ١٤١، ١٤٢

وفي سياق هذا الطرح يحدد فؤاد زكريا سؤالين كمدخل لازم لتحليل فكرة المناداة بتطبيق الشريعة عبر المناقشة العقلانية الهادفة والهادئة !!! حول أبعاد هذه الدعوة وإمكان تطبيقها والنتائج التي تترتب عليها.

أما السؤال الأول: فهو ... لماذا الدعوة إلى تطبيق الشريعة ؟

يبين فؤاد زكريا أن رد المتحمسين لهذه الدعوة ينطوي على مغالطة، إذ يرى هؤلاء المتحمسون أن سبب الدعوة لتطبيق الشريعة هو أن هذه الشريعة آتية من عند الله تعالى، على حين أتت القوانين الوضعية من البشر، وبالتالي تتغلغل هذه الدعوة في قلوب الملايين من البشر وعقولهم، لأنه «لا وجه للمقارنة بين قانون يأتي من عند الله وقانون يضعه البشر. إن الإنسان كائن هش ضعيف، لا يمتد عمره إلا لحظة خاطفة في زمن الكون الأزلي، ولا يشغل كيانه إلا ذرّة ضئيلة في كون شاسع تقاس أبعاده بملايين السنين الضوئية، فإذا كانت لدينا شريعة أوحى لنا بها خالق هذا الكون، وقانون وضعه هذا الإنسان الضئيل المحدود، فهل يصح أن نتردد لحظةً في الاختيار بين الاثنين ؟»[1].

ويبين فؤاد زكريا أنه لو كان الاختيار، حقًا، بين حكم إلهي وآخر بشري، لكانت المسألة محسومةً بلا تردد، لكن الأمر – برأيه – على غير ذلك، لأن هذين البديلين لا وجود لهما إلا في ذهن تعوّد عدم التعمق أو التأمل.

وحجةُ فؤاد زكريا، هنا، تقوم على دُعامتين:

---

(١) د. فؤاد زكريا: الوهم والحقيقة. ص ١٤٣

الأولى: أن أحكام الشريعة تمثّل – في الغالب الأعم – مباديء شديدة العمومية، تحتاج إلى جهد كبير، معرفي وثقافي وفقهي، من أجل بيان تفاصيلها كي يصلح تطبيقها على عصر بعينه ذي ظروف وملابسات خاصة به.

الثانية: أن النص الإلهي، برأي فؤاد زكريا، لا يفسّر نفسه بنفسه، أنما يقوم بتفسيره البشر، ما يعني دخول عناصر بشرية في عملية التفسير هذه ... منها اللساني والبيئي والسياسي، ولهذا وجدت فوارق بين الشرع وبين الفقه[1]، إذ الأخير فيه الكثير مما يمثل الميول البشرية. ولعل هذا أن يكون

---

(١) ... سبق وجاء قولنا «نريد أن نفرق تفرقة إجرائية بين الشرع والفقه:فالشرع هو ما يؤخذ مباشرة من الله تعالى، من خلال آيات القرآن الكريم، أو من الرسول صلى الله عليه وسلم، من خلال السنة النبوية المطهرة .أما الفقه فهو ما يضعه الفقهاء وما يصوغه الشراح ويفسره المفسرون .ومن هنا يمكن القول بأنه بينما الشرع – باعتباره منزلًا من عند الله تعالى سواء في القرآن الكريم أو السنة النبوية المطهرة – مصون لايمكن أن يخطيء، فإن الفقه – باعتباره عملًا من أعمال البشر – غير مصون ولا محصن ضد الخطأ ولامقدس ولا معصوم، لأنه رأي بشر قال أو عمل به، تبعًا لفهمه هو، ونتيجة لازمة لظروف بيئية معينة لابسته وعايشته .لهذا نستطيع القول بأن الشريعة – في الجوهر – منهاج يسعى إلى الكمال، ولذا فلا تعارض بينها وبين العقل، والشريعة – بمعنى أدق – تجمع العوائد، ولهذا فقد صدق من قال إن الفقه ليس هو الشرع بالضرورة، تأسيسًا على أن كل ما تأتي به الشريعة يكون تابعًا للعوائد، وهو – لهذا – يتغير حكمه إذا ما تغيرت عادة قديمة إلى عادة جديدة، لأن الفقه – في مجمله – اجتهاد لاستنباط الأحكام يقوم على أساس العقل والرأي، وهو – بهذا الوصف – غير ملزم إلا حين يُفضي إلى مصالح ملموسة واقعًا في أرض الناس، وهذا معناه – أيضًا – أن الفقه ليس الكتاب ولا السنة، لأنهما – وحدهما – المصدران الإلهيان، أما هو – الفقه – فعمل من أعمال هذا =

السبب «للتباين الشديد بين أنظمة متعددة يقسم كل منها بأغلظ الأيمان أنه هو، وحده، الذي يطبق الشريعة كما ينبغي أن يكون التطبيق»[١].

إن عملية الحكم عملية بشرية خالصة، فطالما بقي من يمارسها إنسانًا، فستظل المشاعر والميول والأهواء والأغراض تعمل عملها في هذا الحكم، حتى لو اعتمد نصًا إلهيًا، ففي عالم البشر لا توجد مفاضلة «بين حكم إلهي وحكم بشري، لأن كل حكم يتولاه الإنسان، حتى لو كان يرتكز على شريعة إلهية، سيصبح بالضرورة بشريًا، تنعكس عليه أهواء البشر وتحيزاتهم وأطماعهم وكل جوانب ضعفهم، وهذا معناه أن الاختيار الحقيقي ليس بين حكم الله وحكم الإنسان، وإنما بين حكم بشري يزعم أنه ناطق بلسان الوحي الإلهي وحكم بشري يعترف بأصله الإنساني.

وخطورة النوع الأول، الذي تظل تلازمه، كما قلنا، كل أخطاء البشر، تكمن في أنه يُضفي على هذه الأخطاء والأهواء صبغة القداسة، ويخلط – عامدًا– بين الأصل الإلهي للأحكام وبين التفسيرات البشرية المغرضة لها، فيقدم للناس نزوات الحاكم وسوءاته كما لو كانت امتثالًا للوحي الإلهي، ويخلع على ضعفه البشري عصمةً لا يستحقها من قريب أو بعيد.

= الفقيه أو ذاك، ومن هنا فقد جاء «إن الشريعة الإسلامية – إذًا – ثابتة لا تتغير، لأنها ترسم إطارًا واسعًا شاملًا يتسع لكل تطور، أما الفقه الإسلامي فمتغير، لأنه يتعلق بتطبيقات قانونية لتلك المبادئ العامة في القضايا والأوضاع المتجددة التي تنشأ من تطور الحياة وتغير العلاقات وتجدد الحاجات».

(١) د. فؤاد زكريا: الوهم والحقيقة. ص ١٤٨

أما النوع الثاني الذي يعترف ببشريته، فإن الخطأ والتحيز فيه أقل خطرًا، لأننا نعلم مسبقًا أنه يعترف أنه من صنع بشر فانين، غير معصومين من الهوى والغرض»[١].

وأما السؤال الثاني: فهو ... كيف تُطبق الشريعة ؟.

وهنا يحدد فؤاد زكريا فريقين من المنادين بتطبيق الشريعة:

أحدهما. يركز، وبشدة، على قضية الحدود.

والآخر. يؤكد أن «تطبيق الشريعة أوسع مدى بكثير من موضوع الحدود. فالعقوبات ليست إلا الوجه السلبي للشريعة. إنها هي الجزاء الذي ينبغي أن يناله الآثم والعاصي»[٢].

ثم يتسائل فؤاد زكريا: هل معنى ذلك «أن الناس الأسوياء، الذين لا يسرقون ولا يسكرون ولا يزنون، مفترضًا كونهم الغالبية، لن تمسهم الشريعة ولن تنظم حياتهم ؟»[٣].

ويجيب «لا جدال في أن الشريعة ينبغي أن تنطبق على الجوانب الإيجابية من حياة الناس، لا على الجوانب السلبية أو غير السوية فحسب.

---

(١) د. فؤاد زكريا: الوهم والحقيقة. ص ١٤٩

(٢) د. فؤاد زكريا: الوهم والحقيقة. ص ١٥٠

(٣) د. فؤاد زكريا: المرجع السابق. نفس الموضع

obeikandl.com

ومن هنا فإن تطبيق الشريعة لا بد أن يكون أوسع نطاقًا من فرض الحدود والعقوبات»[١].

إن فؤاد زكريا، مع إقراره بجدوى الحدود، يتساءل: هل إقامة الحد على السارق وشارب الخمر والزاني واجتّاء هذه الآفات من المجتمع سيؤدي – وحده – إلى إصلاح المجتمع اقتصاديًا واجتماعيًا وسياسيًا ؟ فالمشكلة الاقتصادية، مثلًا، لا تُحل «بمنع السرقة فحسب، بل بزيادة الإنتاج وعدالة التوزيع وترشيد الاستهلاك. وقل مثل ذلك عن المشكلات الاجتماعية والأخلاقية في علاقتها بالحدود الأخرى كحد الخمر والزنا.

وهنا، أيضًا، يكفينا أن ننظر حولنا إلى مجتمعات أخرى طبقت فيها هذه الحدود بكل همة ونشاط، كالسودان في عهده السابق، وباكستان، لكي ندرك أن تطبيق الحدود لم يكن كافيًا على الإطلاق لحل المشكلات الاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية»[٢].

ويقسم فؤاد زكريا التيار الديني، في مسألة الحدود، مدرستين فكريتين:

---

(١) د. فؤاد زكريا: المرجع السابق. نفس الموضع

(٢) د. فؤاد زكريا: الوهم والحقيقة. ص ١٥٠، وانظر في الشأن السوداني: د. منصور خالد: الفجر الكاذب. نميري وتحريف الشريعة. دار الهلال. مصر. مواضع مختلفة. حيث يبين المؤلف كيف كان التوجه صوريًا نحو الحدود الشرعية، بينما الكثرة الكاثرة من الشعب تعاني فوق طاقة البشر.

واحدة تنادي بسرعة تطبيق الشريعة ممثلة في الحدود، ظنًا منها أن هذه الخطوة تُعدّ الخطوة الأساس التي ستترتب عليها باقي الخطوات الشرعية والدنيوية.

وأخرى تقف على العكس من سابقتها ؛ فترى أن مسألة الحدود هي آخر المسائل، ولا بد أن يسبقها إقامة العدل الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، فيأتي تطبيق الحدود دون ظلم لأحد.

ويقف فؤاد زكريا إلى جانب هذه المدرسة، حيث موقفها «ينطوي على إقناع قوي يصعب الاعتراض عليه، ذلك لأن التسرع في تطبيق الحدود، دون تهيئة الجو الاجتماعي الصالح للبشر، يمكن أن يؤدي إلى نتائج مأساوية: فكيف تقبل ضمائرنا أن نقطع يد إنسان يسرق في زمن يسوده العسر والفاقة، وينهب فيه الأغنياء قوت الفقراء ؟»[1].

ثم يرفع فؤاد زكريا صوته مناديًا «اضمنوا للناس، أولًا، حدًا أدنى من العدل، ومن المعيشة الآمنة، وبعد ذلك طبّقوا عليهم حد السرقة»[2].

وهكذا عرض فؤاد زكريا رأيه في مسألة تمس الوطن والمواطن عبر الحوار، حيث يرى أن مواجهة التيار الديني لا يُجدي معها لا العنف الظالم ولا التدليل المفرط، فهي – أولًا وأخيرًا – مواجهة قوامها الحوار الديمقراطي طويل النفس، بعيدًا عن أي صورة من صور التخويف.

(١) د. فؤاد زكريا: الوهم والحقيقة. ص ١٥٢

(٢) د. فؤاد زكريا: الوهم والحقيقة. ص ١٥٣

وفي الدراسة الأخيرة، وتحت عنوان «حوار جديد» يحاور الدكتور فؤاد زكريا مجموعة من المفكرين المصريين، مؤكدًا أن الهدف هو صالح الوطن والمواطن، مبينًا أن هناك نوعًا من المناقشات جادًا ومثمرًا، وآخر لا يقدم جديدًا، لارتكازه على سوء فهم قاصد يعبّر عن خطأ منهجي شاع في حياتنا الفكرية المعاصرة، وهو أن يتحدث هذا الناقد أو ذاك ليس عما هو مكتوب من الكاتب أو القائل، بل عما يتخيله هذا الناقد، أو يقوم هو بتفسير ما هو مكتوب بشكل بعيد عن الأصل، فيستنطقه قسرًا، ما لا يريد صاحبه منه !!! ما يعطي هذا الناقد فرصة سيكلوجية للنقد !!!.

ويرى فؤاد زكريا أن الكلام مع هذا الصنف من الناس يعد مضيعةً للوقت، لأنه سيتطلب من الكاتب الأصلي إعادة شرح المعاني التي أرادها والمقاصد التي تغياها، فكأننا هنا «عود على بدء» !!! .

وهكذا ... ينتقل بنا فؤاد زكريا من حوار إلى حوار، ومن مسألة إلى مسألة، في هدوء وسكينة، متسلحًا – فقط – بالعقل وقدرته على القبول والرفض عبر الإقناع والاقتناع، ما يعطي للحوار نكهة الإثمار الممتع.

إن هذا الكتاب «الوهم والحقيقة في الحركة الإسلامية المعاصرة» يعدّ، برأينا، ليس مجرد كتاب ناقد لبعض الحركات الإسلامية، بل هو دعوة حارة لتحكيم العقل في الفكر والسلوك، كي ننتج ما به نستحق مكاننا تحت الشمس.